٠٠١٢٥

نصوص فلسفية

الاخراج الفنى

البير جورجى

أرسطو

دعوة للفلسفة
(بروتريبتيقوس)

كتاب مفقود لأرسطو

قدم للعربية مع تعليقات وشروح

د. عبد الغفار مكاوى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

الإهــــداء

الى زوجتى ..

كلمات خالدة لأرسطو :

- « إن البشر جميعا يسعون إلى المعرفة بحكم طبيعتهم »
(أرسطو ، ما بعد الطبيعة ، الألفا ، ٩٨٠ أ ، - ٢١ - ٢٨)
- « ماصنع الإله ولاالطبيعة شيئاً باطلا »
(السماء ١ - ٤ ، ٢٧١ أ ٣٣)
- « القانون وحده هو الحاكم والسيد ، هذا القانون الذى يعبر منطوقه عن حكمة وبصيرة ومن ذا الذى يمكنه أن يمثل لنا المعيار الدقيق ويكون لنا بمثابة الدليل الهادى إلى الخير غير الانسان الحكيم ؟ (بروتريبيتيقوس ، ب ٣٨ - ٣٩)
- المثل القائل : لاتعط السكين لطفل ، يعنى ألا تضع القوة فى أيدى الأوغاد (ب ٤)
- الباحث بأقصى جهده عن الحقيقة هو الذى ينفرد بأكمل حياة ممكنة (ب ٨٥ ، ٨٦) .
- إن الحياة الخالية من التأمل والنظر لحياة لاتليق بالانسان . (ب ٤٢) ، دفاع سقراط (الأبولوجيا) ٣٨ أ .

تقديم

كتاب مفقود لأرسطو ضاع مع ماضاع من المحاورات التى كتبها فى شبابه ولم يبق منها غير أسمائها وبعض شذرات متفرقة منها. صحيح أن بعض المؤلفين القدامى قد عرفوا عنوانه الأصلى « بروتربتيقوس » (١) وأن عددا منهم وضع كتبا أخرى تحمل نفس العنوان الذى يفيد الحث على التفلسف وبيان ضرورته للحياة السعيدة. وصحيح أيضا أنهم اقتبسوا منه عبارة ذاعت شهرتها فى كتب الفلسفة حتى يومنا الحاضر – ألا وهى العبارة التى تقول: إما أن التفلسف ضرورى، ولابد عندئذ من التفلسف وإما أنه غير ضرورى، ولابد أيضا من التفلسف لاثبات عدم ضرورته وفى الحالين ينبغى التفلسف » (٢). ولكن الكتاب ظل أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا فى عداد المفقودين.. وبقى الأمر على هذه الحال منذ النصف الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، حين نشر عالم ألمانى كتابا عن محاورات ارسطو طرح فيه السؤال

(١) δ ηιοτιεπτικός Ho Protreptikos البروتريبتيقوس هو الشىء المقنع أو المغرى، والفعل منه (بروتريبو) معناه يحث على شىء ويحض عليه بالحاح. وقد استخدمه أفلاطون فى الحث على الفلسفة، كما استعاره من أرسطو أكثر من مؤلف قديم نقل عنه وتأثر به، وخصوصا يامبلين خوس.

(٢) لم يرد نص هذه العبارة فى الكتاب، وانما استوحاه بعض المؤلفين المتأخرين من مضمونه ومعناه – انظر التعليقات.

عن مضمون الكتاب الضائع وهدفه. وانطلق البحث من هذا السؤال الحائر ودارت عجلته مائة سنة كاملة حتى أعيد بناء الكتاب المفقود الذى تجده بين يديك .

* * *

لو صرفنا النظر عن الفهارس القديمة التى أحصت مؤلفات المعلم الأول (١) لوجدنا نصين اثنين من العصور القديمة يذكر فيها « البروتريبتيقوس » الضائع ذكرا صريحا فالأسكندر الافروديسى (حوالى سنة مائتين بعد الميلاد ، أكبر شراح إرسطو يقول (٢) إن أرسطو يطرح فيه السؤال عن ضرورة التفلسف لبلوغ السعادة والحياة الأخلاقية الطيبة او عدم ضرورته ويؤكد الأسكندر أنه قدم الدليل على ضرورته عندما بين أن من يحتج على الفلسفة إنما يثبت بهذه الحجة نفسها أنه يتفلسف . ولقد كان هم أرسطو أن يدافع عن صحة العبارة التى ذكرها أفلاطون فى محاورة « الدفاع » على لسان سقراط (٣) : « إن الحياة الخالية من البحث والتأمل حياة لاتليق بالانسان ، وأن يؤديها بحجج أخرى استمدها من تجربته فى الحياة ورؤيته لها . أما النص الآخر الذى يرد فيه ذكر الكتاب فيرجع إلى زينون مؤسس الرواقية (من حوالى ٣٣٦ إلى ٢٦٤ ق.م.) الذى يروى (٤) عن معلمه الكلبى „ كراتيس „ (أو اقراطيس تلميذ

---

(١) يذكر أسم الكتاب على سبيل المثال لدى أندر ونيقوس الروديسى الرئيس الحادى عشر على اللوقيون ومصنف كتابات أرسطو – فى كتابه عن مؤلفات أرسطو ، كما يذكر أيضاً فى قائمة مؤلفاته التى أوردها ديوجينيس اللا ئرتى (من الثلث الاول للقرن الثالث بعد الميلاد) فى الفصل الذى كتبه عن أرسطو فى الباب الخامس من كتابه المعروف حياة مشاهير الفلاسفة وآراؤهم ، ص ٢٥١ من الترجمة الألمانية لأتوأبلت ، المكتبة الفلسفية ، هامبورج ١٩٦٧ .

(٢) فى شرحه للمواضع الجدلية أو الطوبيقا لأرسطو ، ٢ ، ٢ ، ص ١٤٩ (واليس)

(٣) الدفاع ، ٣٨أ وانظر كذلك الفقرة الأخيرة من نص هذا الكتاب (ب ١١٠)

(٤) ورد نص الحكاية فى موسوعة ستوبايوس ، ٢ طبعة هنزه ص وتحت رقم (٥٠) من الشذرات والنصوص المتفرقة من محاورات الشباب لأرسطو وكتاباته المفقودة التى نشرها فالسر =

ديوجينيس الكلبي) أنه كان يجلس يوما فى دكان صديقه الاسكافى « فيلسكوس » . وأخذ كراتيس يقرأ عليه من كتاب أرسطو «البروتريبتيقوس» الذى أهداه لثميسون ملك قبرص وقال له فيه : مامن أحد مثلك أهلته الظروف ليهب حياته للفلسفة ، فأنت ثرى، ويمكنك أن تنفق المال اللازم لتحصيلها ، وأنت مرموق المكانة . كان الاسكافى يستمع لما يقرأه صديقه عليه دون أن يكف عن مواصلة عمله . فقال له كراتيس : «أعتقد ياعزيزى فليسكوس أننى سأهديك كتابا بنفس العنوان ، فانك فى رأيى أهل للحياة الفلسفية أكثر من ذلك الذى أهداه أرسطو كتابه » .

وسواء أكانت حكاية الفيلسوف الكلبي صادقة أم من نسج خياله فإن مغزاها لايخفى على القارئ . لقد أراد هذا الشحاذ البائس — الذى عرفت العصور القديمة جولاته فى القرى ومواعظه للفقراء بالزهد والعودة إلى حياة الطبيعة — أراد أن يقول ان الاسكافى المسكين أقدر على الحياة الفلسفية من الملك صاحب السلطة والجاه والثراء . والأهم من ذلك أنه لم يكن ليروى الحكاية ولم يكن زينون ليرددها بعده لو لم يكن « بروتريبتيقوس » أرسطو معروفا بين الناس فى النصف الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد .

مهما يكن الأمر فنحن لا نملك غير هذين النصين اللذين يذكر فيهما كتاب أرسطو ، وكلاهما لا يفيدنا بشئ عما يقوله فيه . ولقد مرت القرون وتوالت الأجيال منذ ذلك الحين إلى أن طرح العالم الألمانى ج . برنايس (فى كتاب صدر له فى برلين سنة ١٨٦٣ من محاورات أرسطو) مشكلة هذا الكتاب وتساءل عن هدفه ومضمونه . وبدأت عيون الباحثين تقتفى آثار الكتاب وتتلمس صداه فى نصوص أرسطو الباقية من كتبه الضائعة أو فى نصوص القدماء الذين أخذوا عنوان كتابه وحاولوا تقليد أسلوبه وأفكاره . وظل

= (فلورنسا ١٩٤٣) وروس (أكسفورد ١٩٥٥) ومازالت هى المرجع فى تفسيرها للعلماء ومحاولتهم لاعادة بناء النص وتحقيقه .

الأمر فى أخذ ورد حتى بدد العالم الانجليزى بايووتر(١) الظلام المحيط به وأثبت أن كتابا بنفس العنوان ليامبلخيوس (أحد أتباع الأفلاطونية المحدثة ٢٧٠ — ٣٣٠م) يضم جزءاً كبيراً أخذ بنصه الحرفى من كتاب أرسطو. وتوالت محاولات العلماء من مختلف بلاد العالم لتفسير النص وتحقيق أسلوبه ومفرداته ومحتواه والتأكد من صحة نسبته لأرسطو — ويطول بنا القول لو حاولنا تتبع أسمائهم وتفاصيل الاختلافات التى دارت ولاتزال دائرة بينهم (٢)، إذ يكفينا فى هذا التقديم أن نتناول الجوانب التاريخية العامة ونعرض لتحليل الكتاب ونشأته ومضمونه.

* * *

أهدى أرسطو كتابه إلى أمير قبرصى مجهول هو « ثيميسون » . ويبدو أنه وجه بهذا الاهداء ضربة بارعة إلى خصومه وأثبت لهم أنه قد نزل إلى ساحة الميدان الذى ظل وقفا عليهم. ومع أن الظروف والأحوال السياسية فى ذلك الحين ليس لها علاقة مباشرة بمضمون الكتاب، فإن الهدف الحقيقى من ورائه هو رد سهام هؤلاء الخصوم (وبخاصة ايزوقراطيس (٣)

---

(١) وذلك فى بحث نشره فى مجلة فقه اللغة، العدد الثانى لسنة ١٨٦٩، ص ٥٥ — ٦٩، وقدم فيه نصوصا اعتمد عليها العالم الألمانى فرنز بيجر — صاحب الكتاب المشهور عن أرسطو وتاريخ تطوره — فى إعادة بناء النص وتفسيره. ثم توالت محاولات أخرى لمراجعة هذا البناء وتحقيق أجزائه لأرسطـــو —

T. Bywater ; On a lost dialogue of Aristotle, Journ. of Philology - 2 (1869), p. 55-69.

(٢) من المعلوم أن التعرض لهذه الاختلافات يقتضى النظر الدقيق فى النص اليونانى وابراز التفاوت فى فهم أسلوبه وكلماته، وهو أمر نشر النص الأصلى بجانب ترجمته، وذلك مالا تساعدنا عليه حالة النشر ولاحالة البحث فى الفلسفة الأرسطية فى العالم العربى. وقد أغنانا النص الذى توصلنا إليه — من تحقيق الأستاذ انجار ديرنج وترجمة — عن ذلك، ومن شاء أن يتتبع تاريخ البحث فى الكتاب إلى مؤلف الأستاذ و. ج. رابينوفتس عنه:

W. G. Rabinowitz; Artistotle's Protrepticus and the sources of its reconstruction, I, Berkeley 1957, 1-22.

(٣) أنظر المزيد عن إيزوقراطيس فى التعليقات..

صاحب خطبة (« الأنتيدوزيس » التى انتقد فيها منهج التعليم والتربية فى الأكاديمية ، ورئيس إحدى المدرستين الفلسفيتين المتنافستين فى أثينا) الذين هاجموا المعرفة النظرية ، وأوحوا إلى الشباب أن الفلسفة — بوصفها — معرفة خالصة — لاضرورة لها ولافائدة منها فى الحياة العملية ، وأن السعادة تكمن فى استقامة السلوك والعمل الطيب وحده .

ولهذا فإن الدعوة البليغة التى يحملها الكتاب إلى التفلسف دعوة موجهة فى الواقع إلى الشباب الأثينى المتزاحم على أبواب المدرستين المتنافستين وهى حث له على حياة التأمل والنظر التى هى وحدها الحياة الخليقة بالانسان .

* * *

يبدأ أرسطو دعوته بالإشارة إلى أهمية الفلسفة والتساؤل عن الفضيلة والخير ، ويبين أن كليهما لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق معرفة مطابقة له ، فبغير هذه المعرفة يصبح امتلاك الخيرات الخارجية من ثروة وقوة وجاه خطرا يهدد الإنسان ويضره أكثر مما ينفعه . هذه المعرفة هى التى تضفى على تلك الخيرات قيمتها . وهى فى الحقيقة تفوقها فى القيمة لأنها لم توجد لأجلها فحسب ، وانما هى قيمة فى ذاتها ، بل هى القيمة العليا التى تجعل لكل ماعداها قيمة — وبذلك ينتهى الغرض الأولى باثبات أن الفلسفة ممكنة .

ثم يشتبك المعلم الأول فى مجادلة الخصوم الذين يشكون فى هذه النتيجة ويروجون بين الشباب أن الفلسفة لاضرورة لها فى الحياة العملية ولاجدوى منها . ويرد على هذا الاعتراض القديم المتجدد أبدا بأن الفلسفة جديرة بالسعى إليها لذاتها لأنها أسمى خير يمكن أن يبلغه الانسان . ولما كانت الغاية الطبيعية للإنسان هى ممارسة العقل فإن الحياة العقلية المكرسة للتأمل والنظر هى مهمته الحقيقية وواجبه الأول ، وبها يبلغ كماله ويجد سعادته . وإذا كان البعض يتهم هذه الحياة بأنها غير نافعة ، فان أرسطو يبين أنه لا يصح

التقليل من قيمتها بالنسبة للمشرع والسياسى ، وبهذا يثبت أن الفلسفة « نافعة » .

ويتابع أوسطو طريقته فى الحجاج دفاعا عن الفلسفة فيبين أن السعادة البشرية تقوم على فاعلية العقل ، وأن التفلسف هو غاية الحياة الانسانية بحكم طبيعتها نفسها ، وأن هذه الحياة التى يهبها صاحبها للعقل هى أسمى لذة وأنقى فرح ممكن ، لأن فاعلية العقل هى الخير الوحيد الذى لايتوقف على غيره ولايتطلب أى شروط خارجية . وهكذا تنتهى هذه الحجج إلى الفقرة الأخيرة (ب ١١٠) التى ترتفع فيها موجة التحمس حتى تبلغ أسمى قمة . إن الفلسفة تعلو بالانسان فوق الارض وفوق الفناء ، وتتيح له المشاركة فى الخلود والألوهية بل تجعله أشبه بإله بين بقية مخلوقات الله ...

* * *

هذه هى جملة الأفكار الأساسية فى الكتاب . وهى تعبر بغير شك عن دفاع مخلص عن الفلسفة ، يوشك فى مفهومنا الحديث أن يكون نوعا من الدعاية الأدبية الفلسفية . . ولابد أن القارئ قد أحس نغمته الخطابية التى تعلو فى أجزائه (وخصوصا فى الفقرتين ب ٤٣ ، ٤٤) إلى حد الصخب الذى يخفق صوت المنطق ! ولكن هذا الصوت المرتفع فى بعض الأحيان لايستطيع أن يخفى دفء العاطفة التى تسرى فيه وتجعل منه شهادة اعتراف صادقة سجل فيها الفيلسوف مثله الأعلى فى الحياة . ومع أن أسلوب الكتاب يشف عن روح الشباب ويختلف اختلافا واضحا عن أسلوب الكتب التعليمية المتأخرة الذى يتميز بالموضوعية والجفاف ، فإنه مع ذلك يعكس تفكير رجل ناضج ويدل على خبرته بالحياة والناس وقدرته على الحجاج والاقناع . ولعل التحليل المتأنى لمضمون الكتاب أن يؤكد هذا الإحساس ويمهد للإجابة عن السؤال الذى يطوف فى أذهاننا عن زمن تأليفه وموقعه من كتابات المعلم الأول وتطوره العقلى والروحى .

* * *

١ - يستهل أرسطو كتابه بالاهداء الذى عرفنا قصته. ثم يعرض أول قضية أساسية فيه: إن السعادة فى الحياة تقوم على الحالة النفسية الطيبة (وهى كما أشرنا قضية سبق أن عبر عنها أفلاطون على لسان سقراط فى محاورة الدفاع ، كما يرجع اليها أرسطو فى فقرات تالية (١) كما أن امتلاك الخيرات الخارجية بغير مبادئ أخلاقية هو الشر بعينه .

٢ - يتحدث ارسطو عن «التفلسف» فيقول إنه يعنى أمرين: فهو من ناحية سؤال يطرح عما اذا كان ينبغى على الإنسان أن يتفلسف، وهو من ناحية أخرى تكريس الحياة للفلسفة . ويتناول القضية الأساسية الثانية فيبين ضرورة التفلسف وقيمته فى الحياة السياسية والعملية (٢) . فإذا كان أصحاب الصنائع وأرباب المهن اليدوية يكتشفون أفضل الأدوات عن طريق ملاحظة الطبيعة فيتحتم على السياسى ورجل الدولة أن تكون لديه معايير معينة يستمدها من الطبيعة ومن الحقيقة ، ويحكم بها على كل ماهو عادل وجميل ونافع .

ولاسبيل لمن لم يهب حياته للفلسفة ولم يعرف الحقيقة أن يتوصل إلى هذه المعايير مستمدة من المعرفة النظرية بالمبادئ والعلل الأولى إلا أنها هى التى تسمح لنا بتصريف جميع أعمالنا .

ويستطرد أرسطو فى تقديم الأمثلة من الحياة العملية والمادية ليؤكد أنها جميعاً لاتستغنى عن المعرفة النظرية. فالأشياء الجسمية مجرد أدوات، وعلينا أن نطلب المعرفة التى تساعدنا على حسن أستخدامها .

وتسير الحجة التى يسوقها لاثبات هذه القضية فى خطوات : فالأشياء تنشأ عن طريق الصنعة والطبيعة أو عن طريق الصدفة والحظ ، (٣) وعملية النشوء تمضى فى خط لايعكس من كون إلى نمو إلى تحقيق غاية

(١) أنظر هذه الفقرات : ب ٥٢ ، ٦٨ ، ٩٣ ، ٩٦ -

(٢) أنظر النتائج التى يستخلصها فى الفقرات (ب ٤٦ - ٥١)

(٣) وهى بالترتيب : تخنى Techné - τέχνη ، وفيزيس Physis - φύσις ، وتيخيه Tuché - Tùxy

إلى تحلل ففساد (١) ، وهى عملية تعبر عن حقيقة «الغائية» التى تطبع بخاتمها مذهب إرسطو كله والطبيعة نفسها هى منبع كل خير وجمال ، وتكون مظاهر إبداعها جميلة بقدر ماتسير العملية الطبيعية السابقة فى طريقها السوى ، كما تكون منتجات الفن والصنعة البشرية جميلة بقدر ماتحاكى الطبيعة وتكمل ماتركته ناقصا .

ويأتى الحديث عن سلم التطور الطبيعى الحى . فالطبيعة نفسها تقضى بأن يكون الهدف الأسمى للإنسان هو تحقيق ملكة العقل التى نسميها الحكمة أو الفطنة (ب ١١ - ٢١) وبحكم الطبيعة نفسها توجد مستويات مختلفة لملكة العقل والقدرة على التفكير . هذه المستويات تؤلف سلما من القيم يتربع على قمته الفكر الذى تتم فاعليته ويختار كذلك لذاته . والطبيعة يسودها النظام والترتيب وتراعى الحد ولاتتعداه ، فهى عاقلة ولاتعمل شيئا بالصدفة (ب ٢٢ - ٣٠ ، و هى فكرة تمثل نواة الفلسفة الأرسطية وتتردد فى معظم كتابات معلم البشرية !) هل يستعصى على الناس بلوغ هذه الغاية الرفيعة ؟ إن أرسطو يؤكد أن الحياة الفلسفية أو الموقف الفلسفى من الحياة ليس هدفا مستحيلا على الإطلاق . بل إن صعوبة تحصيل الفلسفة تقل فى رأيه بكثير عن الفائدة التى تتيحها والفرح الذى نجنيه منها (ب ٣١) . وهناك فى الواقع علم بالعدل و العدالة كما أن هناك علما بالطبيعة وبكل ماهو موجود على الحقيقة ونحن قادرون على تحصيلها سواء بسواء (وهما علم الأخلاق وعلم الطبيعة بالمعنى الأرسطى) . والمسألة فى النهاية مسألة نظر وعلم نظرى بالمبادئ والأصول (٢) .

هذا العلم الخالص يسبق كل علم لاحق بالأشياء . والأدوات والأجسام كما تسبق العلة المعلول ويتقدم الشرط على مايتعلق به ، ويعتمد عليه . فمعرفة الأولى

---

(١) راجع الهامش الملحق بالفقرة (ب ١٢) من النص .

(٢) أوثيوريا Theoria — Θεωρία وهى مصطلح أساسى فى لغة الفسفة ، وكانت فى الأصل تدل على المشاهدة والفرجة على التمثيل ، ثم أصبحت تعنى النظر والتأمل ونشوة الرؤية بعين الـروح ......

والبسيط فى الطبيعة أسهل وأبسط من المعرفة بأى شئ آخر ، لأن كل ما عداها يتكون من هذه العناصر ويبنى منها . ثم ان كل ماهو خير فهو كذلك محدد ومنظم . والمهم بعد كل شى هو العلم بالأسباب والعوامل والعناصر الأولية ، أو هو — كما نقول اليوم — معرفة «البنية» الأساسية بحيث تكون الأولوية دائما للبسيط على المركب ، وبحيث تسبق المبادئ مايترتب عليها .

وبجانب فروع العلم الأخرى يوجد علم بفضيلة النفس (أو كفاءتها وصلاحها ب ٣٢ — ٣٧) . وامتلاك القدرة على التفكير وملكة العقل وفقا لمبدأ الغاية — هو أسمى الخيرات التى يتاح للانسان امتلاكها .

ومن ذا الذى يمكنه أن يجسد لنا المعيار الدقيق للخير والدليل الهادى اليه غير البصير الحكيم ؟ لابد للإنسان من التمييز بين ماهو خير وما هو ضرورى . وحتى لو ثبت له أن امتلاك الحكمة وملكة العقل والتفكير لاينفعه فى الحياة العملية (بل ربما جنى عليه فى معظم الأحيان كما تؤكد لنا تجربة الحياة اليومية !) فإن هذا لايمنع أن التفكير يحمل قيمته فى ذاته ، وأنه جدير بالاختيار والتفضيل فى كل الأحوال (ب ٣٨ -٤٤)

ويرجع أرسطو فى ختام هذا الجزء من كتابه إلى الحجة التى انطلق منها (ب ١١) وهى غائية الطبيعة التى تميل بها إلى تحقيق الأقيم والأجمل والأرفع (ب ٤٥) .

٣ — ومع كل هذه المحاذير فإن النظر العقلى فى أصول الأشياء ومبادئها أمر نافع للحياة العملية . (١) فالسياسى يتحتم عليه كما سبق أن يلم ببعض المعالم والمعايير التى يستمدها من الطبيعة ومن الحقيقة ويستعين بها فى الحكم على ماهو عدل وحق وجمال . (ب ٤٦ — ٥١)

---

(١) يلاحظ أن الأصل أو المبدأ (أرخية ἀρχή — Arché) عند أرسطو هو على الدوام الأصل فى شيء أو عدة أشياء ، وأنه لايقوم بنفسه ولايوجد لوحده على الاطلاق (أنظر كتاب الطبيعة ١ — ٢ ، ١٨٥ أ ٤) .

غير أن معرفة المعايير لاتكفى . فواقعية أرسطو وخبرته بالعالم والناس تجعله يفلسف للعمل كما يفلسف للنظر ، ولهذا يقول صراحة إن من الواجب تحويل المعايير إلى أفعال ، وتجسيد النظر فى ثوب العمل. فالفلسفة عنده تحصيل للحكمة وتطبيقها (ب ٥٢ - ٥٣) ،والنظر فى حقيقته فعل لامجرد تأمل - انه معرفة منتجة متجهة للتحقيق والانجاز .. صحيح أن الإنسان الذى يوقف حياته على النظر ويهبها للفلسفة لايتلقى من الناس أجراً ولا جزاء ، ولكنها تستولى عليه ويجد سعادته الكبرى فى الاشتغال بها والعكوف عليها (ب ٥٥ - ٥٧) .

٤ - ويتساءل أرسطو : ماهى مهمة الفلسفة ولماذا كان بلوغ الحكمة هو غايتنا القصوى ؟ ويبدأ فى الإجابة على هذا التساؤل بالحديث عن العلاقة بين الجسم والنفس . ففى داخل النفس يكون الأعلى هو الجزء الحائز على العقل وملكة التفكير هذا الجزء الصغير (كما يصفه أفلاطون فى الجمهورية ٤٤٢ ج) هو العقل (نوس) وهو يعبر وحده أو فى المقام الأول عن ذاتنا الحقيقية (ب ٥٩ - ٦٢) . أما عن المهمة الأساسية للفكر فهى التوصل للحقيقية (ب ٦٣ - ٦٦) ونحن نسعى فى طلبها عن طريق التأمل الفلسفى ، ونبلغ أسمى درجة فى هذا التأمل عندما نطلبها لذاتها (ب ٦٦ - ٦٩) . ثم يستطرد أرسطو إلى الكلام عن العلاقة بين العلم والرأى . فالعلم والمعرفة الدقيقة أجدر بالاختيار من الرأى الصادق . وأجدر شىء بالاختيار عند الانسان هو التبصر الفلسفى . ولهذا يسعى الناس جميعا فى طلب المعرفة (كما تقول العبارة المشهورة فى مقالة الألفا من كتاب الميتافيزيقا ١ ، ٩٨٠ أ ٢١) ويمتد هذا القسم من الكتاب من الفقرة (ب ٧٠) إلى الفقرة (ب ٧٧) .

٥ - والحياة العقلية بجانب هذا كله حياة غنية بالفرح ، والعقلاء من الناس ينشدونها ويجدون فى طلبها للاستمتاع بالأفراح الحقة والمسرات النبيلة (ب ٧٨ - ٩٢) . وهنا يجد المعلم الأول فرصة مواتية للحديث عن فكرته الرئيسية المعروفة عن القوة والفعل ، ويعرضها عرضا مبسطا

يتقبله القارئ العادى ، فيميزه بين المستيقظ والنائم ، بين المبصر بالفعل والقادر على الإبصار ، بين العارف بالامكان ومن يستخدم معرفته ويطبقها – لينتهى من ذلك إلى القول بأن الفعل أعلى قيمة من الانفعال ، وأن أسمى أفعال النفس هو التفكير ، وأعلى درجات التفكير هو التفلسف ، ولهذا تكون الحياة الكاملة من نصيب أصحاب الفعل الخالص ، أى من نصيب المتفلسفين . وهؤلاء هم الذين يبلغون الغاية ، لأنهم هم الذين يقومون بالفعل الفلسفى – على أساس العلم المتناهى فى الدقة لا على أى وجه كان ! – ويجدّون فى طلب الحقيقة فى حياة النظر والعمل على السواء .

(ب ٧٩ – ٨٦) ولما كانت هذه الفاعلية القصوى المطلقة من كل قيد هى التى توفر الفرح فمن الواضح أن المتفلسف هو الذى يحيا أكمل حياة ويتمتع بأعمق الأفراح .

عند هذه القمة من الدفاع البليغ عن الفلسفة تبرز قمة أخرى مضادة ، إذ يقول أرسطو مامعناه : لكن الناس للأسف لا يدركون مصلحتهم ويجشمون أنفسهم الجهد والمشقة فى سبيل أشياء عقيمة وعاطلة من كل قيمة (ب ٨٧ – ٩٢)

٦ – هكذا تكون الحياة الفاعلية على الوجه الصحيح ، –أى الحياة العقلية – هى الشرط اللازم لبلوغ السعادة . وهنا يهيب أرسطو بإجماع الناس على طلب السعادة ليؤكد من جديد أن التفلسف هو الحياة السعيدة الكاملة أو هو على الأقل أنجح الوسائل المؤدية اليها . (ب ٩٧ –١٠٢) :

٧ – ويسوق أرسطو حجة بلاغية جديدة يبدأبهانغمةسوداءلا تقارن بالنغمة السابقة المتألقة بالبهجة والفرح . فهو يوازن بين الحياة العاقلة وبين حياة الناس الذين يقصرون همهم على مجرد الحياة وبأى ثمن .. وتفاجئنا نظرة النسر الحزين الذى يطل على وادى الأشباح . فالأشياء التى تبدو فى أعين الناس عظيمة ليست فى حقيقتها الا ألعاب ظلال و

وتتصل خاتمة اللحن المكتئب فتقتبس من الحكماء والشعراء القدماء مؤكدة أن حياة البشر تكفير عن ذنب كبير جنيناه ، لتبلغ فى النهاية قلب القتامة نفسها وترسم لوحة لاتنسى عن المساجين الذين تقيد جثث الموتى بأجسادهم بحيث يواجه الوجه بالوجه ، ويلتصق العضو بالعضو[1] (ب ١٠٥ - ١٠٧) .

هل أراد المعلم الأول أن ينفرنا من حياتنا العادية المشغولة بالنهم إلى الثروة والغنى والشهرة وغيرها من الخيرات الظاهرية الخادعة لنحقق العـــلو فوقها على جنـــاح التفلسف ، أم غلبته تجربته أو قراءاته - فانساق إلى هذه الصور الأثيمة ؟ مهما يكن الجواب فإن الكلمات الختامية هى أبلغ دفاع يمكن تصوره عن الفلسفة : فليس ثمة شيء إلهى فى الأنسان الا شيء واحــد يستحق وحده عناء الجهد ، ذلك هو العقل والتبصر الحكيم (أو التفلسف) . وإن حياة تخلو من التأمل لهى حياة تخلو من كل قيمة ولاتليق بانسان . . (ب ١٠٨ - ١١٠)

* * *

متى وضع أرسطو هذا الكتاب ؟ أهو من كتابات الشباب «المنشورة» أم من مؤلفات الرجولة « المستورة » ؟ ألدينا أى دليل على زمن التأليف أم لانملك إلا الترجيـــح ؟ هل كان عند تأليفه تلميذا مخلصا لأفلاطون أم استطاع أن يتحرر من سطوته وبدأ يفكر لنفسهويعلى بناء مذهبه ؟ أكان شابا لايزال أم رجلا يرفل فى إهاب الرجولة الناضجة ؟ .

---

(٢) لعلها إشارة إلى عادة كانت لا تزال متبعة فى عصره عند بعض الشعوب الأخرى ، وقد سبق له أن تكلم عن الكلتيين وبعض القبائل المتوحشة على البحر الأسود فى الاخلاق النيقوماخيه (فى المقالتين الثالثة والسابعة) .

أسئلة يبدو أننا لن نعثر فى شأنها على اليقين . أقصى ماتملكه أن نعرض آراء العلماء وهى لاتزال إلى اليوم تتأرجح على حافة الرأى والترجيح والتخمين ....

* * *

كان الرأى بين معظم الباحثين منذ ألف العالم الألمانى « ييجر » كتابه المشهور عن أرسطو وتطوره الفكرى سنة ١٩٢٣ – أن أرسطو ظل طوال الفترة التى قضاها طالبا ومعلما فى الأكاديمية الأفلاطونية وقاربت العشرين عاما – ظل طوال هذه الفترة وحتى موت أفلاطون تلميذا مخلصا لأستاذه ، تأثر به فى كل ما كتب فى ذلك الحين ، وشارك فى نشر أفكاره وتعاليمه . – غير أن كل ماكتبه أثناء حياته فى الأكاديمية قد ضاع ، لم يبق من أشعاره ومحاورات شبابه سوى بضع شذرات متفرقة من أهمها مابقى من «أويديموس» و «عن الفلسفة» وهذه المحاورات التى نتحدث عنها الآن : « بروتريبتيقوس »(١). وقد زعم «ييجر» أن الكتاب الأخير كان بمثابة برنامج دراسى للأكاديمية ، ودعوة إلى المثل الأعلى الذى بشر به أفلاطون وحث على السير على طريقه . ومع ذلك فان «البروتريبتيقوس » يسجل التحول الذى أصاب نفوس الجيل الجديد من شباب الأكاديمية وغير من نظرتهم إلى الحياة العقلية . لقد حرص أفلاطون على تحقيق المثل الفلسفى الأعلى فى الحياة . ولكنه أراد بفلسفته كلها أن يصلح الواقع وينقذه من الفساد ، وينقل إلى ظلام

---

(١) يلاحظ أن شكل المحاورة ومضمونها عند أرسطو مختلف كل الاختلاف عنه عند أفلاطون ، فهى عند الاول لم تقدم شخصيات تتحاور فى الغالب مع سقراط ، وإنما صيغت على هيئة رسالة أو خطاب إلى بعض الأشخاص . ولعلها كانت محاورات على طريقة أفلاطون فى عهده الأخير ، والحوار فيها قصير جدا لا يتعدى افتتاح الكلام ووضع المسألة ، ثم يشرح المؤلف رأيه فى خطاب كما يشرح سقراط رأى افلاطون " – يوسف كرم . تاريخ الفلسفة اليونانية ، الطبعة السادسة ، ص ١١٤) "

الحياة العملية قبسا من نور المثل والحقائق الخالدة. أما الجيل الشاب فوجد قيمة الحياة فى تأمل الباطن ، فى بهجة الرؤية والنظر الخالص بهذا تحولت مثل الإصلاح السياسى والأخلاق عند أفلاطون إلى التأمل العقلى المتشرب بالروح الدينية . — ولقد أكد «ييجر» أن أرسطو كان يقف فى هذا الكتاب على أرض ميتافيزيقية مختلفة عما نجده فى كتاباته التعليمية المتأخرة ، وأن الأفكار الأساسية فيه أفكار أفلاطونية تحمل طابع معلمه الكبير سواء فى لغتها أو موضوعاتها ، بل إن الكتاب يردد فى زعمه نظرية المثل ويذكر رأى أفلاطون المتأخر فى أنها أعداد ، ويقتبس منهج أفلاطون فى عرض الأخلاق على طريقة أصحاب الهندسة .وكل هذا يؤكد فى رأيه أن أرسطو ظل فى هذا الكتاب وفى سائر محاوراته الضائعة وفيا لأفلاطون ، وأنه لم يصبح «أرسططاليا» الا بعد أن مات أستاذه ومر فى حياته بأزمة باطنية حادة .

بيد أن النظرة إلى فلسفة أرسطو قد تغيرت بعد إعلان « ييجر » عن هذه الآراء . وأثبت بعض العلماء— ومنهم الأستاذ «انجمار ديرنج» الذى ألف كتابا ضخما عن تفكير أرسطو ونشر النص الذى نعتمد عليه وحققه — أن هذه الآراء التى ذهب اليها « ييجر » لاتستند إلى كتابات أرسطو ولا إلى التراث القديم من مؤلفات المؤرخين وكتاب السير . أضف إلى هذا أن لغة أرسطو ومصطلحاته الأساسية لم تكد تتغير منذ أن كتب « الطوبيقا » أو المواضع الجدلية التى ثبت أنها تسبق الكتاب الذى بين أيدينا بحوالى عشر سنوات [1] . والأهم من هذا كله أنهم قدموا الأدلة اللغوية والموضوعية على أن « البروتريبتيقوس » ليس من كتابات الشباب لأرسطو ، وأنه كان قد قضى عند كتابته أكثر من خمسة عشر عاما فى البحث والتعليم فى الأكاديمية ، وأن

---

(١) وهذا هو رأى دى ستريكر E. De Strycker فى بحثه عن تصورات أرسطو ومصطلحاته فى الطوبيقا وظهر فى منشورات الندوة الأرسطية الثالثة ، أكسفورد ١٩٦٨ .

الكتاب نفسه قد وضع حوالى سنة ٣٥٠ – ٣٥١ ق . م . ، أى عندما كان أرسطو فى الرابعة والثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمره وفى أوج تفكيره ونشاطه العقلى، وفى نفس الوقت الذى كتب فيه أفلاطون رسالته السابعة (١) . وإذا كان من المستحيل اثبات هذا التاريخ بالدليل القاطع ، فهو فى رأى « ديرنج » أقرب إلى الصواب من غيره والمهم على كل حال أن الكتاب يعطينا فكرة طيبة عن تفكير أرسطو فى هذه المرحلة من حياته الخصبة الجادة لاسيما إذا تذكرنا أنه لم يعد النظر فيه على عكس ماكان يفعل مع كتاباته التعليميه الأخرى ، وأننا لانملك كتابا آخر من كتبه يحمل نفس الدعوة التى يحملها هذا الكتاب أو يوحى بها ،وأن محاورة «السياسى » التى يُظن أن «يامبليخوس» قد نقل عنها أيضا قد ضاعت ولم تبق منها سوى شذرة ضئيلة لاتثبت شيئاً . .

لا يزال العلماء كما قلت مختلفين حول تفسير « البروتريبتيقوس » وترتيب أجزائه ، وذلك منذ أن بدأ « ييجر» محاولاتهم المستمرة حتى اليوم . ولكنهم لايختلفون فى أصل النص الذى وردت أجزاء كبيرة عند « يامبليخوس » (فى كتاب اختار له نفس الاسم) والمؤرخ اليونانى « ستوبايوس » وكذلك فى إحدى برديات « أوكسيرنكوس » تحت رقم ٦٦٦ – ٤ (٢) . ولقد مضى أكثر من قرن على الفرض السابق الذكر الذى قدمه « بايووتر» مع نصوص الكتاب التى وجدها عند يامبليخوس ورجح نسبتها لأرسطو . واتصلت المناقشات حول

---

(١) كتب أفلاطون هذه الرسالة الهامة – التى تروى كفاحه المأسوى لتطبيق مثله السياسية الأخلاقية فى سيراقوزة – ∞ عندما كان فى العقد الثامن من عمره . راجع نصها الكامل فى كتابى: « المنقد – قراءة لقلب أفلاطون »، دار المعارف بالقاهرة (تحت الطبع)

(٢) لايشذ عن هذا الرأى سوى الباحث و .ج . رابينوفتس فى بحثه السابق الذكر ، اذ يرفض اعتماد أى نص من هذه النصوص وقبول صحة نسبتها الا إذا ذكر اسمه صراحة أو أشير بوضوح إلى نسبته له ، وهو رأى لاوزن له فى تحقيق المصادر ونقد لغة النصوص وتمحيصها .

هذا الغرض طوال هذا الزمن قبل أن يفكر أحد في نقد النص منهجيا أو يشرع في تحليل كلماته وأسلوبه ومضمون معانيه وتطابقها مع نظائرها في سائر كتبه البعيدة عن الشك ولا نريد أن ندخل في دقائق هذه التحليلات اللغوية والنقدية المضنية للأسباب التي ذكرناها من قبل. ولكننا نكتفي بالاشارة الموجزة إلى أهم هذه المحاولات لعلها تقدم لنا لمحة عن عمق البحث العلمي الذي نكتفي في العالم العربي بالوقوف عند سطحه أو نهب رذاذة!

ربما كان الاستاذ السويدي « انجمار ديرنج » هو أهم هؤلاء الباحثين الذين عكفوا على هذا الكتاب فقد نشر بحثين كبيرين (١) عن الكتاب نفسه وعن أرسطو وعرض تفكيره وتفسيره، وقدم النص اليوناني وحلل كلماته وأسلوبه وقابله بكلمات الكتب الأرسطية المعتمدة وأسلوبها وأفكارها الأساسية كما قدم معه ترجمة ألمانية للنص المختلف عليه. والنص الذي قدمه وأعاد بناءه يضم ٦٤٠٠ كلمة وضع فهرساً لسبعمائة كلمة مختلفة منها ثبت له أن اثنى عشرة كلمة منها فقط لاوجود لها في كتب أرسطو الأصيلة وان كانت من الكلمات المألوفة عند أفلاطون أو عند كتاب العصر. والأهم من هذا أنه قدم الأدلة الكافية على أن أسلوب الكتاب في أدق تفاصيله أسلوب أرسطي لاغبار عليه، وحتى المواضع التي يعمد فيها « يامبليخوس » إلى اختصار النص

---

(١) وهما على الترتيب : بروتريبتيقوس أرسطو، محاولة لإعادة بنائه — جوتيبورج ١٩٦١، أرسطو، عرض تفكيره وتفسيره، هيدلبرج ١٩٦٦، وبروتريبتيقوس أرسطو، النص اليوناني وترجمته والتعليق عليه (سلسلة النصوص الفلسفية، كلوسترمان، فرانكفورت سنة ١٩٦٩.

1. Aristotle's protrepticus. An attempt at reconstruction, Göteborg, 1961.
2. Aristotles. Barstellung und Interpretation seines Denkens. Heidelberg, 1966.
3. Der Protrepticus des Aristoteles. Klostermann Texte, Frankfurt-M. 1969.

الأصلى أو التعبير عنه بأسلوبه إلى حد الخروج فى بعض الاحيان عن أسلوب المعلم الأول وأفكاره- إنما تدل جميعها على أن هذا الأفلاطونى الجديد قد نقل عن أرسطو فى معظم الأحوال فقرات طويلة نقلا حرفيا لاشك فيه ، سواء من كتابه المذكور أو من بعض كتاباته الأخرى التى تولى نشرها بنفسه (وهى الكتب المنشورة أو غير العلمية بالمعنى الدقيق التى كان يقصد بها عامة المثقفين، تمييزاً لها عن الكتب «المستورة» أو الفلسفية البحتة التى كانت تدرس فى اللوقيون) . ولقد رجح الباحث السويدى أيضا أن هذا الاختصار والترتيب من جانب يامبليخوس لم يغره مع ذلك بتزييف النص أو خلطه بنصوص أفلاطونية أو غير أفلاطونية غريبة عليه. ولهذا يبقى احتمال أصالة النص أكبر من عدم احتماله، اذ يستحيل كما قدمنا أن يقطع فى أمره على وجه اليقين (1)، كما أن المحاولات المختلفة لترتيب النص ستظل محاولات لا تختلف عن بعضها إلا بقدر مايقدم كل منها من الأدلة العلمية والنقدية، وبقدر ماتعتمد على الحجة والبرهان — وهى كلها دليل متجدد على أن العلم نفسه محاولة ، وسيبقى محاولة بشرية لا يفسدها إلا الكذب والتسرع وادعاء اليقين المطلق ...

تلك — باختصار — هى محاولة « ديرنج » التى انتهى منها إلى أن الذى أعاد ترتيبه وتحقيقه نص أرسطى أصيل ، وأننا نملك الجزء الأكبر من الكتاب أو المحاورة المفقودة ، بل إننا نستطيع أن نحدد بدايته ونهايته بما يشبه اليقين ، كما نستطيع أن نضع أسلوبه وأفكاره ومنهجه فى إقامة

(1) يؤيد هذا الرأى يضاً الأستاذ فلاشار H. Flashar . فى بحث له بعنوان : افلاطون وأرسطو فى « بروتريبتيقوس » يامبليخوس . المجلة الأمريكية لعلم اللغة ، ٤٧ — ص ٥٣ — ٧٩ ١٩٦٥ .

الحجة (١) والاستشهاد بأمثلة من الحكمة الشعبية .. الخ فى سياق الفلسفة الأرسطية على وجه الاجمال ..

* * *

بقى أن نشير إلى محاولتين أخريين فى بناء النص وتحقيقه قام بهما الأستاذان أ . هـ. كروست ، و.ج شنفيس . أما الأول فقد تابع «ديرنج» صراحة فى تحقيقه للنص وتفسيره له وأضاف إليه بعض التعديلات التى لاتستحق الذكر (٢) . وأما الثانى فقد اكتفى بنشر النص اليونانى كما تراءى له بغير ترجمة حديثة ولاتعليقات ، وذلك فى رسالة للدكتوراه قدمها فى سنة ١٩٦٦ إلى جامعة ميونخ (٣) . ويختلف ترتيب النص فى هذا البحث إختلافا كبيرا عن طبعة «ديرنج» . فالمؤلف يعتمد — بجانب النص المأثور عن يامبليخوس على مواضع مختلفة من نصوص أرسطو المعروفة فى كتبه التعليمية (كالاخلاق الأويديمية ، والأخلاق النيقوماخية والسياسة ، ومقالة الألفا من كتاب الميتافيزيقا) ، بل يضيف اليها نصوصا أخرى من كتب مؤلفين مختلفين — مثل « بروتريبتيقوس » المنسوب لايزوقراطيس (المعاصر لأرسطو) والمهدى إلى دومينيقوس —

---

(١) من المعلوم أن أرسطو يبدأ عادة من فرض أو سؤال و نقطة ينطلق منها ثم يسير فى إقامة الحجة عليها حتى يصل إلى نتيجة ، ويعود فيبدأ من نقطة ثانية وثالثة ليصل إلى النتائج المترتبة عليها ، ومن هذه الخيوط التقريبية كلها يصل إلى تعريف نهائى أو نتيجة أخيرة تضم شبكة النسيج الفكرى كله فى « عقدة » مقنعـــة ...

(٢) وذلك فى بحثه الذى نشرته له مطبعة جامعة نوتردام (ولاية انديانا الأمريكيه) سنة ١٩٦٤ :

(٣) A. H. Chroust; Aristotle : Protrepticus. A. Reconstruction. Univ. of Notre Dame Press (Indiana) 1964, 110 p.

G. Schneeweiss; Der Protreptikos des Aristotales Dissertation München. Bamberg 1966, 338 S.

بجانب نصوص من كتابات سترابو (١) وجالينوس (٢) ، وديوجينيس لاثيرتوس (٣) ، وسينزيوس ، وستوبايوس.ويضم الباحث كل هذه النصوص إلى نص يامبليخوس وبردية أكسيرنكوس اللذين اعتمد عليهما «ديرنج » و «فلاشار» ، وذلك دون أدنى مبرر مقنع يسوغ ضمها اليه أو بالأحرى حشرها فيه .. فقد تكون نصوصا قريبة من أفكار الكتاب الأصلى، ولكن وضعها فيه أمر يثير التساؤل ولايساعد على مزيد من الفهم والاقتناع .

ولاشك أن الحكم على مثل هذه المحاولات وترجيح إحداها على الأخرى أمر يستلزم اتقان اللغة الأصلية التى كتب بها أرسطو والاطلاع الدقيق على تفاصيل مذهبه والمعرفة الحقيقية بتطور تفكيره وهى أمور — لأمر واحد ! — لايستطيع كاتب السطور أن يدعيها لنفسه. إن محاولته تقديم هذه الدعوة الملحة إلى الفاسفة لقارئه العربى ستظل أضعف هذه المحاولات وأكثرها تواضعاً ، وان كانت هى كل ما استطاع تقديمه فى حدود علمه وجهده ، وندرة المراجع التى بين يديه !

* * *

وأخيرا فلابد من ذكر بعض الملاحظات عن أسلوبى فى تعريب النص والتعقيب عليه فى الهوامش والتعليقات الملحقة به، والزيادات التى رأيت إضافتهـا إلى النص نفســه رغبــة فى المؤيد من الوضوح :

---

(١) المؤرخ والرحالة الاغريقى المشهور ، من حوالى ٦٤ ق . م إلى حوالى ٢١ ب . م .

(٢) من القرن الثانى بعد الميلاد ، أشهر إطباء العصر القديم بعد أبقراط ومؤسس علم وظائف الأعضــاء .

(٣) سبق ذكره فى بداية هذه االتقديم .

لقد قرأت النص فأذهلتني الكنوز التي ينطوي عليها . وأعدت قراءته مرات قبل أن يتحرك في نفسي الدافع الملح لنقله إلى العربية . كنت في البداية أستبعد الفكرة لاشفاقي مما ستسببه من عناء ، ولعلمي بأن معرفتي المتواضعة باللغة اليونانية لاتسمح لي بمواجهة النص ومشكلاته وتحدياته (وكنت قد تعلمت هذه اللغة قبل عشرين سنة ثم طحنتها مرارة الأيام !) ولكن حبي للنص واعجابي بعظمة صاحبه لم يتركا لي فرصة للتردد . رحت أنقله وأراجع كل كلمة وكل سطر على الترجمة الألمانية الحديثة المواجهة له في الطبعة التي بين يديّ . وإذا كان من حقي أن أقول بأنني استوعبت النص الأصلي - باستثناء عبارات قليلة أشرت اليها في الهامش - فإن من واجب الأمانة أن أعترف بأنه لولا الترجمة الألمانية التي قام بها الاستاذ « ديرنج » ماتأكدت من صحة عبارة واحدة نقلتها ، ولاتجرأت أصلا على هذه المحاولة . ولهذا يطيب لي أن أسجل شكري وعرفاني بجهود هذا العالم الجليل ، ففضله عليّ وعلى هذا الكتاب الذي بين يديك لايمكن أن يجد الكلمات التي تفيه حقه . .

وقد اعتمدت على شروح محقق النص وناشره ، واستعنت بها على كتابة الهوامش والتعليقات . ولم أشأ أن أثقل على القارىء العربي بكلمات يونانية لم أجد داعيا للإكثار منها ، فاكتفيت بالاشارة في الهامش لما وجدته ضروريا لا غنى عنه في التعرف على المصطلحات الأرسطية الأساسية . ولكني لم أستطع في نفس الوقت أن أهمل حاجة الباحث المتخصص في الفكر اليوناني عموما والفكر الأرسطي بوجه خاص إلى مزيد من التفاصيل . فأضفت التعليقات التي تجدها ملحقة بالنص ، واعتمدت في جانبها الأكبر على تعليقات الناشر نفسه ، مع اضافات يسيرة لاتقلل - بل تزيد - من امتناني له وعرفاني بفضله . وقد كان الاغراء بالمزيد من التفصيلات كبيرا . وكان من الممكن الرجوع إلى

المصادر المشار اليها (وخصوصا محاورات أفلاطون وبالأخص الجمهورية) رغبة فى المزيد من التعمق فى جذور الفلسفة الأرسطية والتعرف إلى « الآباء » الذين ينحدر منهم نص هذا الكتاب وكثير من عباراته . ولكننى اقتصرت على التوسع - المحدود - فى بعض الجوانب الهامة عن فلسفة أرسطو ، حتى يخرج القارئ بتصور مجمل عن جذور شجرته وثمارها ، ويرتبط هذا الكتاب فى ذهنه بقدر الامكان بالسياق العام لتفكير المعلم الأول وتطوره .

وإذا قدر للكتاب - وناقله ! - أن يشهدا طبعته الثانية ، فسوف أراجع هذه التعليقات وأضيف إليها مايستحق الإضافة وأعدل منهـا مايحتاج للتعديل .

وقد دفعتنى الرغبة فى الوضوح والتيسير على القارىء أن أضع بين قوسين كلمات تربط بين عبارات أرسطو المعروفة بالتركيز المرهق والايجاز الشديد . كما التزمت بالترقيم العلمى الذى وضعه الناشر المحقق لفقرات الكتاب ، وهو تقليد متبع فى سائر الطبعات المعتمدة لأرسطو وغيره من الكتاب الكلاسيكيين . ويهمنى قبل كل شىء وبعد كل شىء أن يجد القارىء فى هذا الكتاب - بجانب الفائدة العلمية الخالصة - شيئا من المتعة والبهجة العقلية التى أشاد بها المعلم الأول وأوشك أن يجعلها غاية الحياة على هذه الأرض . وأملى أن يخرج منه القارئ العربى وهو أقدر على التفلسف ، أى التفكير الكلى الحر الذى اشتدت حاجتنا إليه مع توالى المحن والآلام .

« ان تطلعك للمعرفة ، أى عزيزى ثيميسون (١) ، وسعيك إلى الرفعة والحياة السعيدة أمور أعلمها عن طريق السماع ، وانى لمقتنع « (ب ١) بأنه مامن أحد يملك أنسب مما تملك من ملكات (٢) تعينك على الأقبال على الفلسفة ؛ فأنت غنى ، بحيث يمكنك أن تنفق على تعلمها (٣) ، وأنت كذلك تحتل مكانة مرموقة ,, ويعتقـد معظم الناس أن الحياة السعيدة تعتمد على امتلاك الخيرات الخارجية ، وهم (لايذهبون إلى هذا الرأى) بغير مبرر ، فنحن نلاحظ أن بعض الناس يوفقون فى جميع شئونهم ويبلغون النجاح على الرغم من حمقهم . ولاشك أنك صادفت فى حياتك حالات أخرى حدث فيها العكس . وقد يمكنك ، من معرفتك بالماضى أو من تجربتك الخاصة ، أن تتذكر عددا من الوقائع التى كان فيها الغرور سببا للسقوط (٤) : لقد عرفت رجالا أسرفوا فى الثقة بالثروة والحظ والقوة ولهذا قضى عليهم بالانحدار (إلى هاوية) الشقاء : وعلى قدر تفوقهم السابق فى النجاح يشتد عمق إحساسهم بالإخفاق وسوء الحظ ويشعرون بالخجل من أن وضعهم الحاضر (ب ٢) لايحفزهم على النهوض بما يرونه واجبا (مفروضا) عليهم .

ولما كنا نلمس (٥) نكد الطالع الذى يلم بهولاء الناس ، فإن علينا أن نتحاشى مثل هذا القدر ونعلم أن السعادة فى الحياة لاتقوم على امتلاك الثروة الكبيرة ، وانما تعتمد على الحالة النفسـية الطيبة (٦) وكذلك الأمر فيما يتعلق بالجسم . فلن يصف انسان أحدا من الناس بأنه « مبارك الحظ من الآلهة » لمجرد أنه يرتدى ثياباً فخمة ، بل سيخلع هذه الصفة

---

(١) هو ملك قبرص أو أميرها المجهول الذى يتوجه اليه أرسطو بالدعوة والخطاب (أنظر المقدمة . والسطران الأولان زيادة على النص أكملها « ديرنج » مهتديا بنماذج من كتابات ايزوقراطيس .

(٢) هى فى النص الأصلى خيرات أو طيبات Agatha- ἀγαθὰ وفى الترجمة الألمانية شروط مسبقـة .

(٣) أى تساعده على اجتلاب المعلمين الأكفاء . قارن كذلك ب ٥٣ من النص .

(٤) أو جاء فيها الغرور والغطرسة قبل السقوط .

(٥) ولما كنا نرى أو نشاهد ونعايـن .. .

(٦) وهذه فكرة أساسية — من أفكار سقراط — راجع الدفاع (الأبولوجيا) ٣٠ ب

على من وهب الصحة وتمتع بالمزاج الصحيح ، حتى ولو لم يكن له أدنى نصيب من الزخرف الخارجي [1] . وبالمثل لايصف المرء نفسا بأنها سعيدة إلا إذا كانت نفسا مثقفة ، ولا إنسانا بالسعادة الا إذا كان مهذبا ، ولكننا نمنع هذه الصفة عمن يتحلى بمظاهر الزينة الفخمة دون أن يكون له أية قيمة فى ذاته . ويصدق هذا أيضا على الحصان ، فمهما يكن من لجامه الذهبي وحـــلاه الثمينة فلن نضفى عليه أى قيمة مادام لايصلح لشيء غير ذلك ، وسنفضل عليه حصانا آخر (نتوسم فيه) الصفات الطيبة [2] (ب ٣) ثم إن من عادة المنحطين من الناس [3] اذا حصلوا على ثروة طائلة أن يقدروا قيمة هذه الثروة تقديرا يفوق تقديرهم لخيرات النفس ، وهذا هو أحقر شيء (يمكن تصوره) . ولو ظهر سيـــد فى مظهر من هو أقل شأنا من خدمه لأصبح عرضة للسخرية والاستهزاء وكذلك يتحتم علينا أن نحشر فى زمرة التعساء[4] أولئك الذين يجعلون لاكتساب الثروة أهمية تفوق (العناية) بطباعهم وأخلاقهم. (ب ٤) والواقع أن هذه هى الحقيقة ؛ فالتخمة ، كما يقول المثل السائر ، تلد الغطرسة ؛ واذا مااقترن النقص فى التربية [5] بالقوة والسلطة تولد عن ذلك الجنون. وأولئك الذين ساءت نفوسهم لن ينفعهم الثراء ولا القوة ولا الجمال شيئا ، بل كلما توافرت هذه الأمور ازداد ضررها على صاحبها عمقا وتنوعا ، ولذلك إن لم تقترن بالتبصر (والحكمة) [6]

---

(١) تعد الموزاة بين التجانس الجسمى والنفسى إحدى الأفكار الرئيسية عند افلاطون — راجع محاورة جورجياس ٤٧٨ أ ، ٥٠٣ حـ .

(٢) هذه الموازنه بين الحصان والانسان تذكرنا بالأمثلة المشهورة التى يلجأ اليها سقراط (الدفاع ، ٢٠ أ) كما ترد فى مجموعة خطب ايزوقراطيس «انتيدوزيس» ٢١٠ — ٢١١

(٣) أو عديمى القيمـــة .

(٤) أن نصف بالتعاسة والشقاء أولئك ....

(٥) هذا هو المعنى الحرفى ، وهو يفيد كذلك انعدام الثقافة والتهذيب ، وليتنا نتوقف عند هذه العبارة العميقة .

(٦) هذه فكرة مألوفة عند أفلاطون ، فالخير عنده لايعرفه الأخير ، وصاحب النفس الشريرة بطبعها لن تجديه معرفة الخير ، أنظر الرسالة السابعة (وتجدها فى كتاب المنقذ ، قراءة لقلب =

إن المثل القائل : « لاتعط السكين للطفل » يعني ألا تضع القوة في أيدى الرعاع (١) (ب ٥) ان التبصر الفلسفي (٢) — وهذا ماسوف يوافقنا عليه الجميع — هو ثمرة الجهد الجاد والبحث عن الأشياء التي تؤهلنا الفلسفة للبحث عنها . لهذا يتحتم علينا — دون لجوء إلى مماحكات لفظية — أن نتفلسف .

(ب ٦) ان كلمة «التفلسف» تدل من ناحية على السؤال عما إذا كان من واجب الإنسان أن يتفلسف ، كما تدل من ناحية أخرى على أن نهب أنفسنا للفلسفة . (ب — ٧) لما كنا نتوجه بحديثنا إلى أناس من البشر لا إلى أولئك الذين لهم حياة ذات طبيعة إلهية ، فلابد أن نضيف إلى تلك التنبيهات (٣) (السابقة) تنبيهات أخرى نافعة في الحياة الاجتماعية والعلمية .

وفي هذا الصدد نقول : (ب ٨) إن ما يقع تحت تصرفنا لتيسير شئون الحياة ، كالجسد وما يخدم الجسد، إنما يقع تحت تصرفنا كنوع من الأداة واستخدام هذه الأدوات مقرون بالخطر ، فهي تؤدي إلى عكس نتيجتها (على يد) أولئك الذين لايحسنون استعمالها. ولهذا يجب علينا أن نسعى إلى معرفة تعيننا على استخدام كل هذه الأدوات على الوجه الصحيح ، كما يجب علينا أن نسعى إلى تحصيل هذه المعرفة وتطبيقها بطريقة ملائمة. يجب علينا أن نصبح فلاسفة إذا أردنا أن نصرف شئون الدولة بصورة صحيحة ونشكل حياتنا الخاصة بطريقة نافعة (ب ٩) بيد أن المعرفة على أنواع

= أفلاطون لكاتب هذه السطور كذلك القوانين ٧٤٣ حـ (إن اولئك الذين يفتقدون الخير يفتقدون السعادة) ، والجمهورية ، الكتاب السابع ١ ، ٣ ، ١٣ ب ٥ ، والقوانين ٦٦٠ هـ

— ولعل هذه الفكرة الجوهرية عند أفلاطون ترجع إلى ايمان سقراط بأن الخير هو الأصل في كل شئ ، ومن لم يعرف الخير فلن يعرف شيئا (أنظر دفاع سقراط)

(١) حرفيا : لاتعط القوة أو السلطة للسفلة والرعاع "وهي كذلك عبارة تستحق منا التأمل والنظر والأعتبار .

(٢) أو التفلسف والنظر العقلي الخالص .

(٣) أو الدعوات التي تنطوي على الالحاح والحث والتشجيع ..

مختلفة ، فهناك المعرفة التى تنتج خيرات الحياة ، وهناك المعرفة التى تستخدمها . وثمة تقسيم آخر : فهناك أنواع المعرفة التى تخدم وتطيع وهناك الأنواع التى تأمر : والأنواع الأخيرة أعلى درجة ، وفيها يكمن الخير بمعناه الحقيقى . ولما كان هذا النوع الوحيد من المعرفة الذى يتوصل للحكم الصحيح ويستخدم العقل ويضع الخير فى مجموعه نصب عينيه ونعنى به الفلسفة هو الذى يستطيع الانتفاع بسائر أنواع المعرفة وتوجيهها وفق قوانين الطبيعة (١) ، فان هذا دليل آخر على ضرورة التفلسف .

ذلك أن الفلسفة وحدها تنطوى على الحكم الصحيح والتبصر المعصوم (من الخطأ) (٢) الذى يملك القدرة على تحديد ماينبغى علينا أن نأتى من الأفعال وأن ندع (ب ١٠) دعنا الآن نتعمق سؤالنا ونتأمله من وجهات النظر الغائية لكى نصل إلى نفس التنبيه (السابق) (٣)

(ب ١١) من بين الأشياء التى تنشأ (وتكون) مايدين (وجود) بعضه للتدبير (العقلى) والمقدرة (البشرية على الصنعة) (٤) — كما هو الحال فى البيت والسفينة اللذين يشترطان المقدرة والتدبير — ، فى حين أن بعضها الآخر لاينشأ عن طريق المقدرة البشرية (على الصنعة) بل بواسطة الطبيعة ؛ أن الطبيعة هى الاصل (٥) فى الحيوانات

---

(١) يأتى تفصيل هذه النقطة فى موضع آخر من النص (ب ٤٧ — ٥٠) والانتفاع هنا بمثابة التطبيق والاستخدام .

(٢) هذا التبصر أو التعقل الحكيم الذى يأمرنا بما يصح أن نفعله وما لايصح يقوم على فكرة أفلاطونية نجدها فى محاورة السياس (٢٥٩هـ — ٢٦٠ جـ) كما يرد ذكره عند أرسطو فى الأخلاق النيقوماخيه ، المقاله الثانية ١ ، ١٢٢٠أ ٩ ، والمقاله الثامنة ٣ ، ١٢٤٩ ب ١٤ ، وكذلك فى الأخلاق الأويديمية ، الكتاب السادس ٢ ، ١١٤٣ أ ٨ .

(٣) يكشف أسلوب هذه العباره عن تدخل يامبليخوس فى صياغتها .

(٤) Techné- τέχη

(٥) أو العلة والسبب Aitia- αἰτία

والنباتات ، وكل نشوء من هذا النوع يتم وفقاً للطبيعة . ولكن هناك أيضا أشياء تنشأ عن طريق الصدفة . ونحن نقول عن معظم الأشياء التي لاتنشأ عن طريق الصنعة ولاالطبيعة ولاالضرورة — (نقول) إنها تنشأ عن طريق الصدفة . (ب ١٢) وليس فيما ينشأ عن الصدفة شيء له هدف أو غاية (١) (من كونه ونشوئه) . أما الأشياء التي تنشأ عن المقدرة البشرية (على الصنعة) فلها غاية وهدف (لأن من يملك المقدرة سيبين لك دائما لماذا كتب ولأي هدف) ، وهذا الهدف (نفسه) أفضل من الشيء الذي نشأ من أجله (٢) . وأنا أتكلم عن الأشياء التي تكون العلة فيها هي المقدرة في ذاتها لابطريقة عرضية فحسب ؛ فإن الشفاء هو بالتأكيد علة الصحة قبل أن يكون علة المرض ، وفن البناء هو علة (تشييد) البيت لاعلة الهدم (٣) ، . فكل ماينشأ عن طريق المقدرة البشرية إنما ينشأ من أجل (تحقيق) هدف معين ، وهذه ، هي غايته وأفضل شيء (بالنسبة له). أما ماينشأ عن طريق الصدفة فلاينشأ لهدف . ومع ذلك فقد يتفق أن يتولد عن الصدفه بعض الخير ، غير أنه لايكون خيراً من خلال الصدفة ومن حيث نشأته عن طريق الصدفة ؛ لأن ماينشأ عن طريقها يكون دائما غير محدد (ب ١٣) إن ماينشأ وفقاً للطبيعة إنما ينشأ لأجل هدف بحيث يكون النتاج الطبيعي دائما أكثر ملائمة للهدف من النتاج الفني فليست الطبيعة هي التي تحاكي الصنعة (البشرية) ، بل هذه هي التي

---

(١) الهدف أو الغرض — Heneka- ἕνεκα والغاية Telos- τέλος

(٢) هذه العبارة الموجزة توضح طبيعة التفكير الغائي عند أرسطو ، فالغاية دائما هي الهدف الأخير ، وعلى تحققها يقوم كل كمال وترق في مستويات الوجود ، ولهذا نجده يقول إن الهدف نفسه يفوق قيمته الشيء الذي نشأ من أجل تحقيق هذا الهدف كما يفوق الوسائل التي تؤدي اليه ... .

(٣) تعبر هذه السطور عن الفكرة الأساسية التي يقوم عليها المذهب الغائي عند أرسطو ؛ فعملية الكون والنشوء تشير في خط متدرج لا يمكن أن يعكس ، وذلك من الكون genesis- γένεσις — إلى النمو Auxesis- αὔξησις إلى الغايه Telos- τέλος إلى التحلل Physis- φθίσις فالفساد Phthora- φθορά

تحاكى الطبيعة ، كما أن المقدرة البشرية (على الصنعة) قد وجدت لمساندة الطبيعة واكمال ماتركته ناقصاً (١) . ذلك لأن من بين الموجودات مايبدو أن الطبيعة وحدها قادرة على إتمامه بنفسها دون حاجة إلى مساعدة ومن بينها الآخر مالا تتمكن (من اكماله) الا بالجهد أو تعجز عنه عجزا تاما . ويتضح هذا لدى نشوء الكائنات الحية . فبعض البذور تتفتح دون أدنى (قدر من) الرعاية ، أيا كانت الأرض التى تسقط عليها ، أما بعضها الآخر فيحتاج إلى فن الزراعة ، وكذلك تستطيع بعض الكائنات الحية أن تنمو بنفسها نموا كاملا وأن تبلغ النضج ، على العكس من الإنسان الذى يحتاج إلى عدد كبير من المهارات الضرورية للمحافظة (على حياته) ، وهو يحتاج إليها فى البداية بعد ولادته مباشرة ، ثم يحتاج إليها بعد ذلك لتغذيته . (ب ١٤) فإذا كانت القدرة البشرية (على الصنعة) تحاكى الطبيعة ، فمن الواضح أن غائية منتجات القدرة البشرية أمر يعتمد على الطبيعة . ويصح لنا أن نقول أن كل ماينشأ نشأة سليمة إنما ينشأ من أجل هدف (معين) . فكل مايؤدى إلى شىء جميل قد نشأ نشأة صحيحة ، وكل ماينشأ أو قد تم نشوؤه بالفعل ينتج شيئا جميلا حين تتم العملية الطبيعية بصورة سوية. أما مايشذ عن الطبيعة فهو ردىء ومضاد لما يوافق الطبيعة . وهكذا تتم النشأة (٢) السوية المطابقة للطبيعة لأجل تحقيق هدف معين (ب ١٥) ويمكننا أن نتبين هذا (من ملاحظة) كل جزء من أجزاء جسمنا على حدة . فإذا تأملت الجفن مثلا وجدت أنه لم يتكون (عبثا) ولغير هدف ، وانما وجد لحماية العينين وتوفير الراحة لهما والحيلولة دون نفاذ شىء من الخارج إليهما . ونحن نقصد نفس الشىء عندما نقول إن الأشياء الطبيعية قد تكونت (٣) لتحقيق هدف معين ، أو عندما

---

(١) أنظر كذلك «الطبيعة» ، المقالة الثانية ٨ ، ١٩٩ أ ١٦ .

(٢) أو الكون السوىّ .

(٣) أو نشأت .

نقول إن الأشياء المصنوعة [1] قد أنتجت لغرض ما . فعندما يتم بناء سفينة لنقل البضائع عن طريق البحر يكون الهدف المقصود من بنائها قد قدم بالفعل . (ب ١٦) ان جميع الكائنات الحية (أو على الأقل) أفضلها وأرفعها قدرا قد نشأ عن الطبيعة وفى تطابق مع الطبيعة. ولا معنى للإعتراض على هذا بأن أغلب الحيوانات قد نشأ ضد الطبيعة ، أى للإفساد والحاق الأذى والضرر . إن أسمى الكائنات الحية (التى تعيش على الأرض) هو الانسان ، وهذا يدل بوضوح على أنه قد نشأ نشأة طبيعية وفى تطابق مع الطبيعة. (ب ١٧) فاذا كان الهدف دائما أفضل من الشيء (إذ أن كل شيء يكون - أو ينشأ - من أجل الهدف ، كما أن الـ « لماذا » [2] هى الأفضل على الدوام بل تفوق جميع الأشياء فى الفضل) وإذا كان الهدف المطابق للطبيعة هو آخر ما يتوصل إليه فى مجرى الكون الطبيعى [3] عندما يسير هذا سيرا متصلا نحو الكمال [4] ؛ واذا سلمنا إلى جانب هذا بأن الجسد هو أول ما يبلغ الكمال عند الانسان ، ثم يأتى بعده ما يتعلق بالنفس ، وأن كمال الأفضل بالنسبة للكون (النشوء) انما يأتى على نحو من الأنحاء دائما فيما بعد وإذا سلمنا بعد هذا بأن النفس تنشأ متأخره عن الجسم [5] ، وأن آخر ماينشأ من (ملكات) النفس هو ملكة العقل [6] (إذ اننا نلاحظ ان هذه الملكة هى بطبيعتها آخر مايتكون عند الإنسان . ولهذا كانت هى الخير الوحيد الذى تطمح الشيخوخة إلى امتلاكه) ؛ اذا سلمنا بهذا كله تبين لنا أن ملكة العقل بحسب طبيعتها هى هدفنا ، وأن استخدامها هو الغاية الأخيرة التى من

---

(١) أى الأشياء التى يتم إنتاجها بطريقة صناعية أو بواسطة القدرة البشرية على الصنعة .

(٢) أو « من أجل ماذا » ἕνεκα — Heneka-

(٣) أى فى سياق العملية الطبيعية .

(٤) أو نحو تحقيق الغايه منه ، وهو المقصود دائماً بالكمال عند أرسطو .

(٥) حرفيا : يبلغ الهدف أو الغاية ، وبلوغها كما سبق للتمام والكمال .

(٦) أو بعد الجسد (٥) أو ملكة التبصر والتدبر والتعقل .

أجلها نشأنا . واذا صح القول بأننا قد وجدنا [1] وفقاً للطبيعة ، فقد اتضح أننا نعيش أيضا لكى نفكر فى شىء ولكى نتعلم . (ب ١٨) دعنا نسأل الآن لأى موضوع من موضوعات الفكر (القائمة) قد أوجدنا الله ؟ عندما سئل فيثاغورس عن هذا أجاب بقوله : « لكى أتأمل السماء » [2] . وقد تعود أن يصف نفسه بأنه (إنسان) يتأمل السماء وأنه انما جاء إلى الحياة من أجل هذا الغرض . (ب ١٩) ويروى أيضا عن أنكساجوراس أنه سئل عن الهدف الذى يمكن أن يبتغيه الانسان من مولده وحياته فأجاب بقوله : لكى يتأمل السماء والنجوم (الطالعة) فيها والقمر والشمس ، وكأن كل ماعدا ذلك لايستحق عناء الجهد[3] . (ب ٢٠) هكذا يكون فيثاغورس قد زعم بحق [4] أن كل انسان قد أوجده الإله لكى يعرف وينظر ويتأمل. وسواء أكان موضوع هذه المعرفة هو (نظام) الكون أم أى طبيعية أخرى ، فذلك أمر قد نفحصه فيما بعد، ويكفى الآن ماقلناه ليكون أساساً نعتمد عليه . ومادامت الغاية - بمقتضى الطبيعة - هى ملكة التعقل ، فان أفضل الأشياء هو استخدامها (فى التدبر والتفكير). (ب ٢١) لهذا يجب على المرء أن يعلم سائر الأشياء من أجل الخير الكامن فى الانسان نفسه ؛ ومن (مجموع) هذا الخير (يقوم) بالأمور الجسيمة من أجل (الأمور) النفسية (ويؤثر) الفضيلة من أجل ملكة التعقل ، لأن هذه هى أسمى الأشياء جميعا . (ب ٢٢) وتقودنا الفكرة التالية إلى نفس الهدف (وهو أن

---

(١) الوجود والنشأة والكون كلها تعبير عن فعل الكون γίγνεσθαι -gignesthai الذى يتكرر بصورة مستمرة فى لغة أرسطو .

(٢) عندما وجه سكان فليوس هذا السؤال إلى فيثاغورس .. الخ (زيادة للتوضيح من الترجمة الألمانية) .

(٣) وكأن كل ماعداها من الموجودات لاقيمة له . - راجع كذلك الكلمات الأخيرة التى يختتم بها أرسطو هذه الرسالة (ب ١١٠) .

(٤) ووفقا لهذه الحجة يكون فيثاغورث ...

من يريد أن يكون سعيدا فلابد له أن يتفلسف) . [ب ٢٣] لما كان النظام يسود الطبيعة كلها ، فإنها لا تفعل شيئا بالصدفة ، وإنما توجه كل شيء نحو هدف محدد. وهي حين تستبعد الصدفة (والاتفاق) (١) تحرص على تحقيق الهدف (أو الغاية) بقدر يفوق كل فن بشرى ، إذ أن الصنعة البشرية (٢) ، كما نعلم ، محاكاة للطبيعة . ولما كان الانسان يتألف بحسب طبيعته من نفس وجسد ، وكانت النفس أعلى قيمة من الجسد . كما كان الأقل شأنا يندرج دائما تحت الأفضل في سبيل تحقيق هدف معين. فإن وجود الجسد إنما يكون من أجل وجود النفس. ونحن نعلم أن النفس تكون في جزء منها عاقلة، وفي جزء آخر غير عاقلة ، وأن الجزء غير العاقل منها أقل قيمة (من العاقل) . ونستنتج من هذا أن الجزء غير العاقل يوجد من أجل الجزء العاقل . والجزء العاقل يحتوى على العقل (٣) . وهكذا يسوقنا البرهان ضرورة إلى (القول) بأن كل شيء يوجد من أجل العقل [ب ٢٤] إن فاعلية العقل هي التفكير (٤) ، والتفكير يقوم على النظر في موضوعات الفكر (٥) ، على نحو ما تكون فاعلية (عضو) الإبصار هي رؤية المرئيات . هكذا يجعل الفكر والعقل كل شئ جديراً بأن يسعى اليه بنو الانسان (٦) ، اذ تكون بقية الأشياء جديرة بالسعي إليها من أجل النفس ، والعقل هو أرفع

---

(١) أو حين تعزل مايتم بطريق الصدفة أو بطريقة عرضية .

(٢) أو القدرة البشرية على الصنعة .

(٣) كلمة العقل Ho Nous ὁ νοῦς من الكلمات الأساسية التي تحتمل معاني متعددة في في اللغة اليونانية ، فيمكن أن تكون هي الفهم ، أو الروح العاقلة ، أو الحس. وقد فضلت التعبير عنها بالعقل تاركا التعقل أو التدبر والتأمل والتبصر لكلمة He Phronesis — φρόν ησις التي تتكرر في هذا السياق .

(٤) أو فعل العقل ἐνέργεια -Energeia ونشاطه هو التعقل .

(٥) أو هو رؤية ماهيات التفكير والتعقل .

(٦) أو هكذا يكون الفكر والعقل هما اللذان يجعلان كل شئ جديرا بالسعي اليه من من الناس .

الأمور قيمة فى مجال النفس، ومن أجله (وحده) يكون كل شىء آخر (ب ٢٥) وتكون بعض الأفعال العقلية حرة حرية كاملة، وهى الأفعال التى تتحقق لذاتها [١]. أما الأفعال العقلية التى تنتج المعارف لأجل أى شئ آخر فهى تشبه الخدم ان كل مايتم فعله لذاته يفوق دائما فى قيمته مايكون (فعله) وسيلة لشىء آخر، وكذلك يكون الحر أعلى قدرا من غير الحر.

[٢٦] ونحن عندما نستعين فى سلوكنا بالتفكير [٢] فإنما نهتدى بهديه حتى ولو وضع المتفكر مصلحته الخاصة نصب عينيه وحدد أسلوب فعله وسلوكه من خلال وجهة النظر هذه. انه ليستخدم جسده (عندئذ) كما يستخدم الخادم، بل إنه ليضطر إلى افساح مجال كبير للصدفة، وهو على العموم يقبل على تلك الأفعال التى يقوم فيها التفكير (العقل) بدور أساسى، حتى لو استلزم الأمر منه فى أغلب أعماله أن يستخدم الجسد استخدام الأداة. [٣] (ب ٢٧) وهكذا نرى أن التفكير المحض الخالص من الهدف أشرف وأقيم من التفكير الذى يكون (مجرد) خادم (يتوسل به) لبلوغ شىء آخر. إن التفكير الخالص يستمد شرفه من ذاته، وحكمة (العقل) هى الشىء الذى يستحق (من الانسان) أن يسعى لطلبه منه، كما أن الفطنة العملية فى الحياة [٤] جديرة بالسعى

(١) راجع كذلك عن السعى إلى المعرفة الحرة الخالصة من كل هدف هذه العبارات المشهورة فى كتاب «الالفا» من الميتافيزيقا ١ — ٢، ٩٨٢ ب ١٩ — ٢٨

(٢) أو التدبر والتأمل.

(٣) يلاحظ القارئ أن هذا النص لايخلو من الغموض والاضطراب، وإن كان السياق العام يجعل الفكرة واضحة. وقد اعتمدت هنا على ترجمة «ديرنج» لصعوبة النص الأصلى.

(٤) أو التدبر الذى يوجه السلوك العملى ويهديه. ويلاحظ أن الكلمة الأصلية (فرونيزيس — φρόνησις -Phronesis) التى تتكرر بصورة مستمرة فى هذا الكتاب تعنى الحكمة أو التبصر والتأمل النظرى الخالص من ناحية، كما تعنى الفطنة العملية فى أمور السلوك والحياة العملية والأخلاقية من ناحية أخرى. ولهذا يستخدمها أرسطو فى هذا الكتاب بهذين المعنيين المختلفين على حسب السياق، وليس صحيحا أنه يوحد هنا بين المعنيين على طريقة أفلاطون فى التوحيد بين السلوك العملى والمعرفة النظرية كما تصور «ييجر».

إليها من أجل الفعل (أو السلوك) . وإذا فالخير والشرف ملازمان للتفكير الفلسفى قبل كل شيء آخر ، وإن لم يلازما بطبيعة الحال أى نوع من هذا التفكير كيفما اتفق ؛ إذ ليس كل تصور بوجه عام مقرونا بالشرف وإنما نتوقع من تفكير المعلم الحكيم وحده(١)ـ عندما يتجه هذا التفكير إلى المبدأ السائد فى الكون ـ أن يكون قريبا من الحكمة وأن يكون حكمة بالمعنى الحقيقى(٢) . (ب٢٨) إن الانسان إذا حرم الادراك الحسى والعقل صار شبيها بالنبات ؛ وإذا حرم العقل وحده تحول إلى حيوان ؛ أما إذا تحرر من غير المعقول (٣) وتمسك بالعقل فقد صار شبيها بالإله (ب ٢٩) ذلك أن العقل ، الذى نتميز به عن سائر الكائنات الحية ، لايتحقق بصورة كاملة (٤) الا فى ذلك الشكل (من أشكال) الحياة الذى لايعترف بالاتفاق (والصدفة) (٥) ولا بما هو عديم القيمة . صحيح أن لدى الحيوانات ومضات ضئيلة من الفطنة والعقل ، غير أنها لاتتمتع بأدنى نصيب من الحكمة النظرية (٦) . فهذه الحكمة لايوصف بها غير الآلهة ولاتنسب الا للعقل الإنسانى (٧) . ومن جهة أخرى

---

(١) أو من تفكير أحد معلمى الفلسفة أو كبار أساتذتها .

(٢) يحتمل أن يكون مبليخوس (فى رسالته التى تحمل نفس العنوان وهو الحث على التفلسف واعتمد عليها ناشر النص فى إعادة بناء كتاب أرسطو المفقود ـ أنظر المقدمة(قد تدخل فى صياغة هذه العبارات تدخلا شديدا ترتب عليه اضطرابها وتسلل الغموض اليها .

(٣) هو الجزء الشهوانى غير العاقل من النفس ἄλογον – Alogos (وفى هذا الموضع ἀλογίας – Alogias) وقد فضلت أن أعبر عنه هنا وفيما تقدم بغير العاقل تجنباً لما تلقيه كلمة «اللامعقول» من ظلال حديثة ..

(٤) لايبلغ حقه الكامل ..

(٥) أو الذى لايعترف بالعرضى المتولد عن الصدفة والاتفاق . وواضح أن هذا النوع من الحياة هو الحياة النظرية Bios theoretikos- Θεογικς التى يهبها للحكمة والتأمل الخالص .

(٦) أى أنها تخلو خلوا تماما من ملكة التعقل والتدبر والنظر الفلسفى ، والأمثلة المعتادة التى يضربها أرسطو على ذلك هى النحل والنمل والعناكب وطيور الجنة (السنونو) ..

(٧) العبارة الأخيرة أضافة من الناشر لاصلاح النص الأصلى .

يتفوق كثير من الحيوان تفوقا بعيدا على الإنسان فى حدة الإحساس وفى الغرائز الطبيعية [(١)] (ب ٣٠) والحقيقة أن الحياة العقلية هى (الشىء) الوحيد الذى لايمكن فصله عن الخير، ومن المعترف به بوجه عام أنها متضمنة فى تصور الخير. ذلك أن الرجل (النابه) الرفيع القدر الذى يتبع حياته (طريق) العقل هو الذى لايقع ضحية للصدفة، بل يعرف أكثر من غيره من الناس كيف يحرر نفسه من (كل) مايخضع لها. فإذا استطعت أن تهب نفسك دائما لهذه الحياة [(٢)] عن اقتناع كامل أمكنك أن تحيا حياة آمنة مطمئنة. (ب ٣١) نحن جميعا نختار مايكون فى نفس الوقت ميسورا ونافعا [(٣)]. ومن ثم يجب الاعتراف بأن الفلسفة [(٤)] تملك هاتين الصفتين وأن صعوبة تحصيلها أقل من النفع الذى تتيحه. ذلك أننا جميعا نهتم بأسهل (الأمور) وأيسرها. (ب ٣٢) ومن السهل إثبات قدرتنا على إكتساب العلم بما هو عادل ومفيد، كذلك على تحصيل المعرفة بالطبيعة وبالموجودات الحقيقية الأخرى [(٥)]. (ب ٣٣) إن الأولىّ والبسيط يكون على الدوام أكثر من الثانوى والمركب [(٦)]؛ وكذلك يكون الأعلى فى سلم الأولويات الطبيعى

---

(١) أو الدوافع الطبيعية؛ راجع كذلك تاريخ الحيوان ٤ – ٢٩، ٥٧٨ ص ٣٣، وكتاب السياسة ١–٢، ١٢٥٣ أ ٢٩، ويلاحظ أن مفهوم الغريزة أو الدوافع غير العاقل يؤدى دورا كبيرا فى كتابى أرسطو الأخلاق الكبرى والأخلاق الأويديمية – (أنظر ماكتبه دير ماير فى طبعته للأخلاق الكبرى (دار مشتات وبرلين ١٩٥٨) عن الغريزة غير العاقلة ἄλογος ὁρμή – Alogos Hormé (ص ٤٢٣).

(٢) أى الحياة النظرية التى يهبها صاحبها للحكمة والتأمل العقلى الخالص.

(٣) أى أننا نختار من كل الأمور مايمكننا الوصول إليه والانتفاع به في نفس الوقت. ويلاحظ أن لغة الفقرة الأخيرة وأسلوبها يخالفان لغة أرسطو وأسلوبه المعتاد، مما يحمل بعض الشراح المحققين على الظن بأن يامبليخوس قد عمد إلى تلخيص النص الأصلى.

(٤) هى التفلسف فى النص الأصلى.

(٥) أى على اكتساب فرعين من فروع العلم هما الأخلاق (العادل والحق الممتع) والفلسفة الطبيعية (الطبيعية وسائر الموجودات الحقة).

(٦) أى المركب من البسيط.

معروفا أكثر من الأدنى . والمعرفة تنصرف (إلى الاهتمام) بماهو محدد ومنظم من الناحية المنطقية أكثر مما تهتم بضده كما تنصرف إلى (العلل) والمكونات الأساسية أكثر مما يترتب على هذه (العلل أو المكونات) (١) والأشياء الطيبة تتفوق فى تحددها وتنظيمها على الأشياء السيئة (٢) على نحو مايتفوق الإنسان المترفع (٣) على الإنسان الوضيع . ومثل هذه الأضداد يتحتم أن يحمل نفس الصفات (٤) . فالأولىٌ يحمل طابع العلة أكثر من الثانوى ؛ فإذا انتفى ذلك فقد انتفى معه ماتلقى عنه وجوده ؛ وهكذا تنتفى الخطوط عندما تنتفى الأعداد ، كما تنتفى السطوح بانتفاء الخطوط والأجسام بانتفاء السطوح .. وكذلك الأمر مع الكلمة عندما ينتفى المقطع ، ومع المقطع عندما ينتفى الحرف [ب ٣٤] ولما كانت النفس أعلى قيمة من الجسد (لأنها بحسب طبيعتها هى المسيطرة) وكانت توجد فيما يتعلق بالجسد صنعة (بشرية) (٥) وعلم ، كالطب والرياضة البدنية (اللذين نصفهما بانهما فرعان من فروع المعرفة ونؤكد أن هناك نفرا من الناس يتقنونهما) فمن الواضح أن الضرورة تقتضى وجود نوع من الرعاية ومن الصنعة التى تتعلق بالنفس وفضيلتها ، كما تستلزم أن نكون قادرين على تحصيلهما ؛ إذ أننا نملك القدرة على (اكتساب) معرفة بأمور يكون جهلنا بها أكبر كما تكون معرفتنا بها أشق وأصعب . (ب ٣٥) ويصدق هذا على معرفة الطبيعة ؛ فالتبصر بالعوامل الأساسية (٦)

---

(١) إشارة من أرسطو إلى نظريته المشهورة عن العلل (αἰτίαι -Aitiai)

(٢) أو أن الخيرات تفضل الشرور فى مدى تحددها وتنظيمها .

(٣) أو الإنسان الفاضل الرفيع القدر .

(٤) يفرق أرسطو كما هو معلوم بين الجنس ، والفصل ، والنوع والخاصة — وهى مفاهيم نسبية دائما .

(٥) قدرة بشرية على الصنعة ، أى تقنية أو مهارة فنية بتعبيرنا الحديث .

(٦) أو النظر العقلى في العلل والمبادئ الأولى .

فى الطبيعة وبأبسط عناصرها يكون منذ البداية أكثر ضرورة من التبصر بما قد نشأ عنها (بصورة ثانوية لاحقة) ، اذ أن هذا الأخير لاينتمى للأشياء الأولى من الناحية المبدئية [1] ، كما أن الأولى لايستمد منه وجود ، بل إن من الواضح أن سائر الأشياء تنشأ عن ذلك الأولى وعن طريقه توجد . (ب ٣٦) ومهما تكن النار والهواء والعدد أو أى «طبائع» أخرى هى العوامل الأساسية [2] ، ومهما تكن هى الأولية بالنسبة (للموجودات) الأخرى ، فمن المستبعد فى كل الأحوال أن نعرف أى شئ عن هذه مالم نعرف تلك . [3] اذ كيف يتسنى لأحد أن يفهم الكلمات المنطوقة إذا كان لايعرف المقاطع ، أو كيف يمكنه أن يفهم المقاطع إذا كان لايعرف شيئا عن الحروف ؟ (ب ٣٧) ليكن هذا هو (صفوة) القول عن وجود علم بالحقيقة [4] وعلم بفضيلة النفس وعن قدرتنا على تحصيلها . (ب ٣٨) أما أن هذا (التبصر بالمبادئ) هو أعظم الخيرات وأنه أنفع من كل ماعداه ، فذلك ماسيتضح مما سنقوله بعد : إننا جميعا متفقون (فى الرأى) على أن أرفع الرجال خلقاً وأشدهم بطبيعته قوة هو الذى ينبغى أن يتولى الحكم [5] ، كما أننا متفقون على أن القانون وحده هو الحاكم والسيد، ذلك القانون الذى يعبر منطوقه عن

---

(١) أولا ينتمى للمبادئ الأولى — ويلاحظ أن أرسطو يستخدم نفس التعبير (العلل أو المبادئ الأولى (في موضع آخر من كتاباته للدلالة على المفاهيم الأساسية والتصورات العقلية الأولية التى تستعين بها فى تحليل بقية المفاهيم ومعرفتها (الميتافيزيقا ، مقالة الجاما ، ١ ، ١٠٠٣ أ ٢٦) .

(٢) أو العلل الأولية .

(٣) أى لايمكن معرفة شئ عن بقية الكائنات المترتبة على العوامل الأساسية والعناصر الأولية طالما كنا جاهلين بهذه العوامل والعناصر .

(٤) أى علم بمبادئ الطبيعة (كما سبق فى الفقرة ب ٣٢) . ويوضح أرسطو قوله هذا فى كتاب الطبيعة حيث يتكلم عن حقيقة الموجودات وطبيعتها (١ — ٨ ، ١٩١ أ ٢٥)

(٥) راجع مناقشة هذه المسالة فى محاورة «جورجياس» لأفلاطون ٤٨٨ ب وما بعدها وكذلك الأخلاق النيقوماخية ، المقالة العاشرة ، ١١٨٠ أ ٢١ —

حكمة بصيرة . [ب ٣٩] ومن ذا الذى يمكنه أن يمثل لنا المعيار الدقيق ويكون لنا بمثابة الدليل (الهادى) إلى الخير غير الإنسان الحكيم(١) (فى خلقه وسلوكه) إن الأمر الذى يختاره ، حين يتم اختياره على أساس من الروية والعلم هو الخير أما الضد (المخالف له) فهو الشر . [ب ٤٠] إن جميع الناس يميلون إلى اختيار مايلائم طباعهم ، فالعادل يختار الحياة العادلة ، والشجاع حياة الشجاعة ، والبصير العاقل حياة التبصر والعقل . ومن هذا يتضح كذلك أن الانسان الذى وهب ملكة العقل(٢) سيختار الفلسفة ، لأن التفلسف هو مهمة هذه الملكة . ومن هذا الحكم الصادر بأقصى درجة من اليقين يتبين أن ملكة التعقل(٣) هى أسمى الخيرات جميعا . [ب ٤١] ويتضح صدق هذه القضية مما سيأتى قوله . إن التأمل والمعرفة جديران بأن يسعى إليهما الإنسان ، إذ بغيرهما يستحيل على المرء أن يحيا الحياة التى تليق بإنسانيته . ولكنهما كذلك نافعان للحياة العملية ، فما من شئ (يمكن أن) يبدو لنا خيراً إن لم تتحقق الغاية منه عن طريق التدبر والنشاط العاقل الحكيم (٤) وسواء أكانت الحياة السعيدة تكمن فى البهجة والهناء أم فى الفضيلة (والسمو الخلقى) أم فى التعقل (وممارسة العقل) فلابد للإنسان فى كل هذه الأحوال من أن يتفلسف ، لأننا لانتوصل إلى

---

(١) أو المتدبر العاقل البصير Ho Phronimos- ὁ φρόνεμος

(٢) يستخدم أرسطو نفس الكلمة السابقة (فى هامش ٤) التى يمكن التعبير عن فعلها ونشاطها فى هذا السياق بكلمة التفلسف ، وكما يمكن الاحتفاظ بالكلمة الأصلية نفسها لتعدد معانيها التى يعزف أرسطو على أوتارها ، والمهم أنها تعنى « التبصر » عن علم ونظر وتدبر ، كما تعنى الاختيار الحر الذى يقرره الانسان بما يلائم طبعه (أنظر كذلك الأخلاق النيقوماخية ٦ — ٥ التى تعالج هذا الموضوع بتوسع (والملاحظ أن الكلمة لاترد عند أفلاطون ، وإن كان يشير إلى الموضوع الذى تدل عليه (الدفاع ٣٨ ه)

(٣) أو ملكة التفلسف والنظر العقلى الحكيم قياسا على التصرف فى الكلمة السابقة ومشتقاتها He Phronesis- (ἡ φρόνησις)

(٤) أى أن الأمر يعتمد على وجود موقف أخلاقى يستلزم من الإنسان أن يختار ويتخذ قرارا ، وبغير ذلك لن يمكننا أن ننعت شيئا بأنه خير ، لأن الخير يكمن فى الفعل الصادر عن تأمل وتدبر يصلان بالشئ إلى غايته ويحققان الهدف منه (لاحظ التفكير الغائى هنا أيضا ؟)

الرأى الواضح فى كل هذه الأمور الا عن طريق التفلسف [1] [ب ٤٢] ان من يبحث فى كل علم عن نتيجة مختلفة عنه و يتطلب من كل معرفة أن تكون نافعة [2] إنما يجهل تمام الجهل مدى الفارق الأساسى بين ماهو خير وما هو ضرورى و انه فى الواقع لفارق عظيم . ذلك أن تلك الأشياء التى نحبها من أجل شئ آخر ولا نستطيع أن نعيش بغيرها ، هى الأشياء التى نصفها بأنها ضرورية وعلل مصاحبة ، أما (الأشياء) التى نحبها لذاتها ، حتى ولو لم ينتج عنها شئ آخر ، فهى التى نصفها بأنهاخيرات بالمعنى الصحيح لأن الواحد (منها) ليس جديرا بالاختيار من أجل شئ آخر وهلم جرا إلى ما لانهاية ، اذ لابد من التوقف فى موضع ما . والحق أنه لمن السخرية فى أن نبحث كل شئ عن منفعة مختلفة عن الموضوع نفسه ، ومن المضحك أن نسأل « فيم ينفعنا هذا ؟ » « ولأى غرض يمكننا أن نستخدم هذا ؟ » فالذى يتكلم على هذا النحو لايمكن بأى حال من الأحوال — كما هى عادتى فى القول [3] أن يُشَبَّه بذلك الذى يعرف النبل والخير ويستطيع التفرقة بين العلة و العلة المصاحبة . [ب ٤٣] وربما كانت (أفضل وسيلة) لمعرفة حقيقة قولى أن ينقلنا أحد عن طريق الفكر [4] إلى جزر السعداء . هنالك لن نشعر بأننا فى حاجة إلى شئ [5] ، ولن يتيح لنا أى شئ من الأشياء الأخرى أية منفعة ،

---

(١) يرجح الأستاذ "ديرنج" أن تكون العبارة الأخيرة من صياغة يامبليخوس .

(٢) تنصب حجج أرسطو فى هذه الفقرة كلهاعلى مهاجمة خصومه ، وخصوصا ايزوقراطيس وأتباعه (راجع أنتيدوزيس ، ٢٦٢ – ٢٦٩) ولهذا يرجع إلى التفرقة الأساسية بين الجميل καλά Kala- (أو الخير Agatha- ἀγαθά) وبين الضرورى ἀναγκαῖα -Ananklaia وهى التى أكد عليها أفلاطون ، وتعلمها أرسطو أثناء فترة الطلب الطويلة التى قضاها فى الأكاديمية وأوشكت على العشرين عاما ، ولهذا نجده يشير فى الفقره التالية إلى الحياة التى نصفها نحن — الآن — بالحياة الحرة ، أى نحن أعضاء الأكاديمية ....

(٣) أو كما تعودت أن أقول ، وهى عبارة من «لوازم» أسلوب أرسطو ، وتدل على أصالة النص وعدم المساس به الا فى المواضع القليلة المشار اليها ....

(٤) أى بالخيال والتصور أو ينقلنا نقله روحية إلى جزر الخالدين المباركين...

(٥) أى لن نشعر بالحاجات والضرورات .

ولن يتبقى (لنا) الا شئ واحد هو التفكير والتفلسف[١] ، أى هذا الذى نصفه الآن بالحياة الحرة . وإذا صح هذا [٢] ، فكم يحق للواحد منا أن يخجل من نفسه اذا ما أتيحت له فرصة[٣] الإقامة فى جزر السعداء (فأقعده) العجز والتقصير عن اغتنامها . ولهذا فإن الجزاء [٤] الذى تمنحه المعرفة للإنسان لايدعو أبداً للإحتقار ، كما أن الخير الذى يتمخض عنه غير قليل . وكما أننا نحصد ثمار العدالة فى «هاديس» [٥] — على نحو ما يقول الحكماء من الشعراء — كذلك يجوز لنا أن نأمل فى (حصد) ثمرات الفلسفة من جزر السعداء [٦] [ب ٤٤] ولهذا لايصح أن نبتئس إذا بدا لنا أن التفلسف غير نافع أو مفيد [٧] ، لأننا لانؤكد أنه مفيد وانما (نؤكد) أنه خير ، وأن ليس على الانسان أن يختاره من أجل شئ آخر ، بل عليه أن يختاره لذاته . وكما أننا نسافر إلى «أوليمبيا» (لمشاهدة) التمثيل نفسه ، حتى ولو لم نحصل منه على مكسب آخر (اذ أن المشاهدة فى ذاتها أكبر قيمة من المال الكثير) ، وكما أننا لانتفرج على الإحتفالات المسرحية فى الأعياد الديونيزية [٨] لكى نأخذ شيئاً من الممثلين — فنحن فى الواقع ننفق عليها من مالنا — ، وكما أننا نقدر الكثير من المشاهد التمثيلية الأخرى تقديراً يفوق ثروة وفيرة من المال ، فسوف يقدر المرء تأمل الكون تقديرا يفوق (فى قيمته) كل تلك الأشياء التى تعد فى نظر الرأى العام

---

(١) حرفيا : التامل أو النظر العقلى الخالص : Θεωρεῖν — theorein

(٢) أو إذا كان ماأقوله هو الحق ..

(٣) أو إمكانيـــة ..

(٤) أو الأجـــر ..

(٥) وهو العالم السفلى المظلم ، عالم الأشباح والأرواح فى تصور الإغريق وأساطيرهم .

(٦) أى يصح لنا أن نتوقع حصد ثمار الفلسفة من جزر السوداء التى سنقيم عليها بمعونة النظر والتفلسف .

(٧) يتردد هذا التعبير المزدوج عن النافع والمفيد فى الأخلاق النيقومرخية — أنظر ترجمة ديرلماير لها وشروحه عليها — دار مشتات ، ص ٣٨١ .

(٨) فى الأصل : لانرى « الديونيزيات » والمقصود هو المهرجانات المسرحية التى تقام فى الاحتفال بعيد ديونيزيوس .

(أشياء) نافعة [1] وليس يصح بغير شك أن يبذل الإنسان الكثير من الجهد فى السفر إلى أناس يظهرون (على المسرح) فى صورة نساءوعبيد أو يتنافسون (فى الألعاب الأوليمبية) على المبارزة والسباق (فى العدو) ثم يذهب من ناحية أخرى إلى أن الإنسان لاينبغى عليه أن يتأمل طبيعة الأشياء (أو يتأمل) الحقيقة بغير مقابل (مادى). [ب ٤٥] وهكذا نكون الآن قد تقدمنا (على طريق بحثنا) من غائية الطبيعة بوصفها المنطلق (الذى نبدأ منه) للتنبيه إلى (ضرورة) التفلسف ، مقتنعين بأن التفلسف خير وأنه إذا أخذ فى ذاته جدير بالشرف والتكريم ، حتى ولولم يترتب عليه شئ نافع فى الحياة العملية [2] [ب ٤٦] أما أن نشاط الفكر يتيح فى الواقع للحياة اليومية (للبشر) أعظم الفائدة ، فذلك ما سوف نتبينه بسهولة (من النظر) فى المهن والصنائع . إن جميع الأطباء الحاذقين ومعظم معلمى الألعاب الرياضية مجمعون على أن الذى يريد أن يكون طبيبا حاذقا أو معلماً بارعا (للألعاب الرياضية) يتحتم عليه أن يعرف الطبيعة معرفة وثيقة . [3] والأمر كذلك مع المشرعين المبرزين [4]

---

(١) يؤكد ايزوقرط (أنتيدوزيس ٢٦١ – ٢٦٣) أن دراسة الفلك والهندسة وسائر العلوم الأخرى ذات نفع ضئيل ، كما يسئ الظن بالعلوم التأملية – وخصوصا الفلسفة – ، فالمعرفة العلمية (الابيستيميه Epistemé) فى رأيه تتعدى طاقة البشر ، وأقصى مايفعله الإنسان هو التعلم من الخبرة العملية والاستقامة فى سلوكه من الآلهة والناس ، وفى حياته الخاصة والعامة .

(٢) يبدو من الفقرة السابقة تلخيص من يامبليخوس ، وان كان هذا لا يمنع من القول بأن أمثال هذا التلخيص أمر مألوف فى كتابات عند أرسطو الانتقال من فكرة إلى فكرة أخرى جديدة وعلى كل حال فإن الجزء الثانى من (ب ٤٦ – ٥١) مختلف على نسبته للكتاب اختلافا كبيرا (انظر التعليقات) .

(٣) أى أن يكون خبيراً بها خبرة دقيقة ويعرفها معرفة مؤكدة . قارن هذه الفكرة نفسها فى محاورتى فايدروس (٢٧٠ د) وخارميدس (١٥٦ ب – ه) وهى تشهد على ماقلناه فى المقدمة من أن أرسطو يستلهم معظم أفكاره الأساسية من أفلاطون ، لكنه يطورها بعد ذلك تطويرا مختلفا ويوجهها لغايات مختلفة . فهو يؤكد هنا مثلا أن الطبيعة نفسها هى التى تهدى الإنسان وتوجهه فى فعله ، أما أفلاطون فيقول فى المواضع السابقة إن من واجب الطبيب أن يتامل الإنسان وطبيعته ككل لا أن يشفى هذا الجزء أوذاك من بدنه . وبذلك يختلف مفهوم الفيلسوفين عن الطبيعة .

(٤) حرفيا : المشرعين الجيدين .

الذين يجب عليهم أن يعرفوا الطبيعة معرفة دقيقة ، بل أن تفوق خبرتهم بها خبرة أولئك لأن أولئك يظهرون حذقهم فى المهنة بتنمية كفاءة (١) الجسد أما هؤلاء فينصرفون إلى فضيلة النفس ويسعون لتوجيه الناس (٢) إلى السبل المؤدية لسعادة المجتمع أو شقائه ، ولهذا تزيد حاجتهم إلى الفلسفة . [ب٤٧] وفى المهن اليدوية الأخرى تكتشف أفضل الأدوات عن طريق ملاحظة الطبيعة؛ ففى النجارة مثلا (يكتشف) الفادن (٣) والمسطار والأداة التى ترسم بها الدائرة ؛ (٤) وفى بعض الأدوات تكون ملاحظة الماء هى النموذج (الذى نحاكيه) ، وفى بعضها الآخر (نحتذى) بأشعة الشمس التى تلتقطها . وبمساعدة هذه الأدوات نتثبت مما هو مستقيم ومستوى بحيث يلائم الإدراك الحسى بدرجة كافية . وبهذه الطريقة نفسها يتحتم على رجل الدولة (٥) أن تكون لديه معايير معينة يستمدها من الطبيعة نفسها ومن الحقيقة ويستعين بها فى الحكم على ما هو عادل وجميل ونافع . فكما يمتاز النوع المذكور من الأدوات فى الأعمال اليدوية عن كل ماعداه ، كذلك يكون هذا المعيار هو أفضل المعايير إذا توفر له أكبر قدر ممكن من التوافق مع الطبيعة . [ب ٤٨] ولاسبيل لإنسان لم يهب حياته للفلسفة ولم يعرف الحقيقة أن يتوصل إلى هذا (المعيار) (٦) . والواقع أن الناس لا يتوصلون فى الصنائع

---

(١) هى فى الأصل فضيلة Areté – Aʼρετῆ وهى يصعب إيجاد مرادف عربى واحد لها ، اذ تختلف بحسب السياق فتكون فضيلة أو كفاءة أو صلاحية .

(٢) أو تعليمهم ..

(٣) أداة مؤلفة فى طرفة قطعة من الرصاص تمتحن به استقامة الجدار .

(٤) وهى عبارة عن قلم من الرصاص مثبت فى خيط .

(٥) أو يجب على السياسى ..

(٦) أى أن السياسى الذى لم يهب حياته للفلسفة ومعرفة الحقيقة سيكون عاجزا عن التوصل إلى هذا المعيار الملائم لطبيعة الأشياء ، وسيستحيل عليه أن يعرف ما ينفع الناس ويهديهم إلى العدل والجمـــال .

(والمهن) الأخرى إلى الأدوات وأدق الحسابات عن طريق المبادئ الأولى بل يستمدون (معرفتهم بها) من مبادئ من الدرجة الثانية والثالثة والرابعة مشتقة عنها (١) ، ولهذا يكون علمهم تقريبيا كما يقيمون أحكامهم على الخبرة ، إن الفيلسوف وحده هو الذى يحاكى الأشياء الدقيقة نفسها لأنه هو الذى يتأمل الأشياء ذاتها لا الصورة المقلدة لها (٢) . [ب٤٩] وكما يمتنع على المهندس الذى لايستخدم المسطار وما شابهه من الأدوات بل يعمد ببساطة إلى محاكاة البيوت الأخرى - أن يصبح مهندسا جيدا كذلك يصعب على من يشرع القوانين للمجتمع أو يباشر العمل السياسى (فى الدولة) بمجرد النظر إلى الأعمال الأخرى أو المجتمعات الأخرى ومحاكاتها - كمجتمعات الاسبرطيين والكريتيين - (يصعب عليه) أن يصبح مشرعا جيدا أو رجلا ممتازا (٣) - ذلك لأن محاكاة شئ غير جميل لايمكن أن تكون جميلة ، ولايمكن أن تصبح محاكاة شئ هو بطبيعته غير إلهى ولادائم خالدة أو دائمة . إن الفيلسوف وحده من بين العاملين جميعا هو الذى يتصف بثبات قوانينه ونبلها . [ب٥٠] ذلك لأنه هو الوحيد الذى يحيا وبصره مثبت على الطبيعة وعلى (كل ماهو) إلهى. انه يشبه الملاح الجيد الذى يرسى (سفينة) حياته عندما هو أبدى ودائم ، وهناك يلقى مرساته ويحيا سيد نفسه. [ب ٥١] إن هذه

---

(١) أى مشتقة عن تلك المبادئ الأولى .

(٢) أى أنه يتأمل الموجودات ذاتها ولاينظر فيما يحاكيها من موجودات . ويلاحظ أن أن أرسطو يعتمد فى كلامه عن المهن والصنائع على الحجة التى ذكرها أفلاطون فى الجمهورية(٥٣٣ ب ج) لكى يسهل عليه الوصول إلى هدفه من تفضيل الحكمه الخالصة أو النظر العقلى على سائر أنواع النشاط العملى ، كما يلاحظ القارئ أيضا أنه يلجأ هنا إلى الأسلوب الخطابى ويبالغ فيه فيه الفقرات التالية .....

(٣) ينطوى هذا القول ضمناً على إدانته النظم السياسية للكريتيين والأسبرطيين ووصفها بأنها «غير جميلة» ومع ذلك فينبغى الحذر من إستخلاص نتائج موضوعية من هذا السياق الخطابى البعيد عن التحليل الدقيق ..

المعرفة فى ذاتها معرفة نظرية ، ولكنها تسمح لنا بتصريف جميع أعمالنا وفقاً لها . وكما أن (قوة) الإبصار لاتخلق شيئاً أو توجد شيئاً ، لأن مهمتها الوحيدة هى تمييز كل شيء من الأشياء المرئية على حدة وتوضيحه وإن كانت تمكننا من عمل شيء وتساعدنا عند العمل أكبر مساعدة (إذ لولاها لأصبحنا عاجزين كل العجز عن الحركة) ، فان من الواضح أيضا أننا نستطيع عن طريق هذه المعرفة ، على الرغم من أنها نظرية ، تحقيق حد لا يحصى من الأعمال ، كما نستعين بها فى تقرير الأخذ بشيء أو تجنب شيء آخر ؛ وعلى الجملة فنحن نكتسب عن طريق هذه المعرفة كل ماهو خير . [ب ٥٢] من شاء أن يضطلع بمهمة فحص ماقلناه فيجب عليه أن يتبين بوضوح أن كل ماهو بخير للإنسان ونافع للحياة يكمن فى الفعل والممارسة لافى مجرد المعرفة بالخير . فنحن لانبقى أصحاء عن طريق معرفتنا بالأشياء التى تفيد صحتنا ، بل عن طريق تزويد الجسم بها ؛ ولانكون أثرياء عن طريق المعرفة (بماهية) الثروة بل عن طريق اكتساب ثروة كبيرة ، والأهم من هذا كله أننا لانحيا حياة جميلة ونبيلة من خلال معرفتنا ببعض (الحقائق) عن الموجود ، بل من خلال عملنا الخيرّ (١) ، لأن هذه هى الحياة السعيدة بحق . يلزم عن هذا أن الفلسفة بدورها — اذا صح ما نقوله من أنها نافعة — إما أن تكون ممارسة للأفعال الطيبة ، أو أن تكون مفيدة (٢) فى القيام بمثل هذه الأفعال [ب ٥٣] وهكذا ينبغى على الإنسان أن لايهرب من الفلسفة ، إن كانت (٣) — كما أعتقد — هى اكتساب الحكمة وتطبيقها وكانت الحكمة نفسها من أعظم الخيرات . وإذا كان الانسان يجشم نفسه عناء

---

(١) «تذكرنا هذه العبارة بعبارة أخرى مشهورة ذكرها أرسطو الأخلاق النيقوماخية » (١ — ٨ ، ١٠٩٨ أ ٢١) : «ان السعادة تكمن فى الحياة الخيرة والعمل الطيب .»

(٢) أو مشجعة على القيام بها .

(٣) أى الفلسفة .

السفر إلى أعمدة هرقل ويعرضها للأخطار الكثيرة فى سبيل المال ، فلماذا لايشق على نفسه و يتكلف الجهد فى سبيل الفلسفة (١) ؟ الواقع أن من طبع الرجل العادى أن يسعى إلى الحياة لا إلى الحياة الخيرة ،وأن يتبع آراء الجمهور بدلا من أن ينتظر منهم الاستجابة لرأيه ، وأن يبحث عن المال ولايكترث على الإطلاق بما هو نبيل .[ب ٥٤] يبدو لى الآن أنه قد تمت البرهنة على فائدة الموضوع وأهميته برهنة كافية . أما أن (تحصيل المعرفة الفلسفية) أسهل بكثير من تحصيل أى خير آخر ، فذلك أمر يمكن الاقتناع (بصحته) مما يأتى [ب ٥٥] إن أولئك الذين يهبون حياتهم للفلسفة لايتلقون من الناس أجراً يمكن إن يحفزهم على مثل هذا الجهد . ومهما يبلغ الجهد الذى بذلوه فى (تحصيل) مهارات أخرى (٢) فإنهم يتمكنون فى وقت قصير من إحراز تقدم سريع نحو المعرفة الدقيقة ، وهذا فى رأيى دليل على سهولة تحصيل المعرفة الفلسفية . [ب ٥٦] وثمةحجة أخرى (تقول) إن جميع الناس يأنسون للفلسفة ويريدون عن طيب خاطر أن يتفرغوا لها ويتركوا كل ماعداها وهذا أيضا دليل لايستهان به على أن الاشتغال بها متعة ، ولوكانت مجرد جهد وعناء لما فكر أحد فى أن يشقى نفسه بها وقتا طويلا (٣) أضف إلى هذا أن النشاط الفلسفى ميزة كبيرة عن كل ماعداه من ألوان النشاط فلا يحتاج المرء فى ممارسته إلى أى أدوات أو أمكنة خاصة ، بل حيثما وجد على الأرض إنسان يهتم (بأن ينصرف) إلى التفكير ، فقد وجدت

---

(١) قارن الجمهورية ٥٠٤ د ه .

(٢) لعل أرسطو قد كتب هذه العبارة وهو يستحضر فى ذهنه منها الدراسة فى الأكاديمية كما شرحه أفلاطون فى الجمهورية (٥٢١ حـ — ٥٣٢) فقد كان الطلاب يبدأون بدراسة الهندسة ويتدرجون عبر المهارات τέχναι — Technai الأربع إلى أن يبلغوا قمة الجدل حيث يحيون بين المعقولات الخالصة ويتأملون المثل ذاتها .

(٣) لابد أن تكون هذه العبارة قد خرجت من قلب المعلم الأول الذى وجد المتعة فى الاشتغال بالفلسفـــة !

لديه كذلك القدرة على الامساك (١) بالحقيقة كأنها حاضرة (بين يديه) .
[ب ٥٧] هكذا نكون قد أثبتنا أن فى الإمكان أن يهب الأنسان حياته للفلسفة ، وأنها أعظم الخيرات جميعا ، وان من السهل تحصيلها واكتسابها ولهذه الأسباب تستحق الإقبال عليها بهمة وحماس [ب ٥٨] نأتى الآن إلى السؤال عن المهمة الحقيقية للمعرفة الفلسفية وعن السبب الذى يجعلنا جميعا نسعى اليها . وهذا ما أريد الآن أن أشرحه من وجهة نظر جديدة. [ب ٥٩] نحن البشر نتألف من نفس وجسم ؛ جزء منهما يسيطر والجزء الآخر يسيطر عليه (٢) ، أحدهما يستخدم والآخر يوجد وجود الأداة وتطبيق الجزء الذى تتم السيطرة عليه ، أى الأداة ، يكون دائما على علاقة محددة بالجزء الذى يقوم بالسيطرة والاستخدام .
[ب ٦٠] فى النفس يوجد العقل من ناحية ، وهو الذى يسيطر ويسود بحكم طبيعته ويقرر شئوننا (٣) كما يوجد من ناحية أخرى ذلك الذى يخضع (ويطيع) ويقبل السيطرة عليه ، ويكون كل شئ فى حالة طيبة عندما يحقق كل جزء من أجزاء النفس الفضيلة (٤) التى يختص بها بطبعه ؛ وبلوغ هذه الغاية هو الخير . [ب ٦١] ويسود النظام الكامل قبل كل شىء عندما (يتمكن) أفضل جزئى النفس وأكثرها وأجدرها بالشرف(٥)

---

(١) أو إدراكها .

(٢) أى يحكم أو يتحكم ويسود والآخر يخضع للتحكم . ويلاحظ ورود هذه الفكرة أيضا لدى إيزوقراطيس (أنتيدوزيس ١٨٠) .

(٣) أو يتولى زماننا ويقضى فى شئوننا وأعمالنا . والملاحظ أن الفقرة (٥٨) أضافة من ناشر النص الأصلى استخلصها من السياق العام ولم تدل فى الشذرات المأثورة عن يامبليخوس أو غيره —

(٤) من الصعب — كما اشرت فى هامش سابق — التعبير بكلمة واحدة عن هذا المصطلح Areté- ἀρετῆ (أريتيه) الذى عن يعنى الفضيلة بمعناها الأخلاق كما يعنى الصلاحية والكفاءة ، عندما نكون مثلا بصدد الكلام عن عضو من أعضاء الحس يؤدى وظيفة خير أداء . بهذا المعنى الأخير تتردد الكلمة فى حوار سقراط عند افلاطون ، كما تتردد عند أرسطو فى كلامه عن العين الجيدة أو الحصان الجيد بحيث تكون فضيلتها هى قوة الإبصار والصمود فى معارك القتال ....

(٥) المقصود بهذا الجزء هو العقل « نوس » Nous — νοῦς

– من تحقيق فضيلته . وكلما كان الشئ بحكم طبيعته أكثر امتيازا وتفوقا تميزت فضيلته الملائمة لطبيعته وازداد تفوقها . وتزداد قيمة الشئ عندما يكون بحسب طبيعته متفوقا فى سيادته وقيادته ، كما هى حال الإنسان مثلا بالقياس إلى الحيوانات . كذلك تزيد النفس فى قيمتها على الجسد (لأنها أعلى منه درجة فى السيادة والسيطرة) ، وفى داخل النفس يكون الأعلى هو الذى يملك الفعل وملكة التفكير . (١) ومن هذا النوع ذلك الذى يأمر وينهى ويخبر بما ينبغى عمله أو تجنبه .

[ب ٦٢] وأيا ماكانت فضيلة هذ الجزء من أجزاء النفس ، فلابد أن يكون الأجدر بالاختيار بالنسبة للجميع على وجه الإجمال وبالنسبة لنا . اذ يصح ، فيما أرى ، أن نقول إن هذا الجزء ، سواء وحده أو بالدرجة الأولى ، هو ذاتنا الحقيقية . [ب٦٣] وفضلا عن هذا لا يصح أن نصف عملا بأنه خير(٢) إذا حقق شئ (من الأشياء) مهمته(٣) الملائمة لطبيعته على أحسن صورة ممكنة (بحيث لا يتم ذلك بطريقة عرضية ، بل من حيث هو فى ذاته(٤)) والفضيلة التى تمكن الشئ من انجاز هذا هى التى نصفها بأنها أسمى فضائله (كما نعتبرها) فضيلته الحقة .

[ب ٦٤] إن الشئ المركب (من أجزاء) والقابل للتجزئة له أنواع من الفاعلية متعددة ومختلفة ؛ أما مايكون بسيطاً بحكم طبيعته ولا يمكن وجوده فى مجرد علاقته بشئ آخر فيلزم بالضرورة أن تكون له فضيلة واحدة تميز ماهيته . [ب ٦٥] ولما كان الانسان(٥) كائنا حيا بسيطا وكانت تحدد طبيعته(٦) بالفكر والعقل(٧) فليست له سوى مهمة واحدة

---

(١) أو القدرة على الفهم .
(٢) أو بأنـــه جيد .
(٣) حرفيا : فعله أوعمله .
(٤) أى بطريقة تعبر عن ذاته وتصدر عنها Katch'auto- Καθ' αὑτὸ
(٥) ولما كان الانسان "بوصفه كلا واحدا (اضافة من ديرنج)
(٦) أو ماهيته وخاصيته He ousia- ἡ οὐσία
(٧) أى بملكة التفكير والنطق وبالعقل .

هى بلوغ الحقيقة المتناهية فى الدقة ، أى المعرفة الحقة بالموجودات . أما إذا كانت له قدرات عديدة تميزه ، فإن أقيم فعل (تحققه) هذه القدرات هو الذى يساعده على تحقيق أعظم فعل ممكن ؛ فالصحة مثلا هى فعل الطبيب ، والسفر المأمون هو فعل ربان السفينة ، ولا يسعنى أن أصف أقيم أفعال الفكر أو الجزء المفكر من النفس إلا أنه البحث عن الحقيقة ، والحقيقة هى أسمى فعل يقوم به هذا الجزء من النفس [ب ٦٦] هذا الفعل يحققه الجزء المفكر عن طريق تحصيل العلم ، بحيث يكون تحققه على أفضل وجه كلما ازدادت قيمة العلم ؛ وإن أسمى غاية للعلم هى المعرفة الفلسفية (١) . لأنه إذا وجد شيئان وكان أحدهما جديراً بالاختيار بسبب الآخر ، فإن الأقيم والأجدر بالاختيار هو الذى بسببه وقع الاختيار على الآخر ، على نحو ما يكون الأمر مع اللذة بالنسبة لما ينتج اللذة مع الصحة بالقياس إلى ما يسبب الصحة ، إذ أننا نقول إن ذلك قد نتج عن هذا . [ب ٦٧] وليس ثمة شىء أجدر بالاختيار من البصيرة الفلسفية (٢) التى نصفها بأنها هى قدرة أسمى وظائفنا النفسية (٣) ، وذلك إذا قارنا بين وظائف النفس المختلفة ، لأن الجزء العارف من النفس هو بذاته وحده أو بالاتحاد مع الأجزاء الأخرى أكثر قيمة من بقية النفس مجتمعة ، وفضيلته هى العلم (٦٨) ولهذا لم تكن أية فضيلة من الفضائل التى يتكلم عنها الناس بوجه عام (٤) من فعل البصيرة

---

(١) أى أن المعرفة النظرية الخالصة هى أسمى غاية . وأرسطو يؤكد هذا فى الكتاب الذى بين أيدينا كما يلح عليه فى سائر كتاباته ، وبخاصة الميتافيزيقا والأخلاق النيقوماخية والنفس . . الخ أما أفلاطون فيرى أن الجدل (الديالكتيك) هو قمة العلوم والمعارف جميعا (الجمهورية ٥٣٤ ﻫ) .

(٢) أو الحكمة والنظر والتدبر والتأمل الفلسفى الخالص .

(٣) أو بأنها هى أسمى قدراتنا النفسية وأعلاها مرتبة .

(٤) ويقصد بها هذه الفضائل الأربع : الشجاعة والتدبر (أو الاعتدال)، والعدالة والحكمة وبهذا المعنى أيضا يتحدث أفلاطون فى الجمهورية (٤٩١ ج) عن الخيرات أو الفضائل التى يتفق عليها الناس عادة .

الفلسفية ، لأنها أسمى منها جميعا (١) . فالغاية التى يتم بلوغها تكون دائما أعلى شأنا من العلم الذى نبلغها عن طريقه . ومع ذلك فليست كل فضيلة (من فضائل) النفس نتيجة مترتبة على البصيرة الفلسفية ، ولا كذلك الحياة السعيدة . اذ لو كانت البصيرة الفلسفية (٢) فاعلة لأنتجت شيئا آخر مختلفا عنها هى نفسها ، على نحو ما ينتج فن البناء بيتاً دون أن يكون هو نفسه جزءا من البيت (٣) ؛ أما البصيرة الفلسفية فهى على العكس من ذلك جزء من فضيلة (النفس) ومن الحياة السعيدة ، لأننى أزعم أن الحياة السعيدة إما أن تنشأ عنها أو أنها (أى البصيرة الفلسفية) هى نفسها الحياة السعيدة (٤). [ب ٦٩] على أساس هذه الحجة (٥) يستحيل على البصيرة الفلسفية أن تكون علما منتجا ؛ إذ يتحتم أن تسمو الغاية على الطريق المؤدى إليها ؛ ولكن ليس هناك ماهو أسمى من الحياة الفلسفية ، إلا أن يكون أحد الأشياء التى ذكرناها قبل قليل (أى فضيلة النفس والحياة السعيدة) ؛ وليس فعلهما شيئا آخر غير أن الحياة الفلسفية (٦) وإذا فلابد من التمسك بأن العلم الذى نتكلم عنه علم نظرى ، لأن من المستحيل أن تكون الغاية منه انتاجا (أو

---

(١) لأن التبصر هو القوة السائدة فى المجال العقلى والإخلاق على السواء .

(٢) أى أن البصيرة الفلسفية وحدها لاتستطيع أن تجعل الانسان سعيدا . وأرسطو يحاول هنا أن يؤكد أن هذه البصيرة لاتنتج شيئا لأنها هى نفسها فى ذاتها .

(٣) كل حركة أو تغير يفترض عند أرسطو وجود محرك ومتحرك ، وبهذا يكون فن البناء هو المحرك بالنسبة إلى الهدف أو الغاية منه . وهو البيت نفسه. وقارن الميتافيزيقا ؛ مقالة اللام ٤- ١٠٧٠ ب ٣٠ — ٣٥ وغيرها من المواضع .

(٤) يلاحظ القارئ من جديد أن أسلوب أرسطو فى تقديم الحجة أسلوب بلاغى وخطابى ، وهو يبالغ فيه إلى الحد الذى يوشك معه أن يكون محاولة لتغطية ضعفها المنطقى ..

(٥) أو هذا الحجاج والتدليل .

(٦) ربما كان المعنى هو أن الفضيلة والحياة السعيدة يؤديان إلى الحياة الفلسفية مثل العكس تمامـــــا .

إنجازا عمليا) . [ب ٧٠] هكذا تكون المعرفة والنظر الفلسفي (١) هما المهمتان الحقيقيتان للنفس . إنهما لأجدر الأشياء جميعا باختيارنا نحن البشر ، حتى يمكن — في رأيي — أن نقارنهما بقوة الإبصار التي تظل خليقة بالتقدير ولو لم ينتج عنها الا الأبصار نفسه . [ب ٧١] (يمكننا أن نثبت هذا على النحو التالي (٢)) اذا اتفق لأحد أن يحب شيئا بسبب شئ آخر يكون بمثابة صفة مضافة اليه ، فمن الواضح أنه سيزداد حبا لذلك الشئ الذى تتوافر فيه هذه الصفة بدرجة أعلى . فلو أحب انسان التنزه (٣) — على سبيل المثال — لأنه صحى ، فسوف يؤثر العدو عليه إذا تبين له أنه أصح منه (٤) وكان هو نفسه قادرا عليه ، بل لقد كان من المحتمل أن يؤثره لو عرف ذلك من قبل . (وثمة حجة أخرى) فعندما يكون الرأى الصادق (٥) شبيها بالمعرفة العلمية (إذ أننا نقر بقيمة الرأى الصادق بقدر ما يكون مضمون الحقيقة الذى ينطوى عليه شبيهاً بالمعرفة العلمية) ، وعندما يتعلق مضمون الحقيقة هذا بوجه خاص بالمعرفة العلمية (٦) ، عندئذ تصبح المعرفة أجدر بالاختيار من الرأى الصادق . [ب ٧٢] وإذا كنا نحب الإبصار لذاتها ، فإن هذا دليل كاف على أن الناس جميعا يحبون التفكير والمعرفة إلى أقصى حد ممكن . (٧) [ب ٧٣] ذلك لأنهم يحبون

---

(١) أو التفكير والتأمل الفلسفي وقد فضلت النظر استناداً للفعل الأصلي theorein- Θεωρεῖν

(٢) إضافة من "ديرنج" للتوضيح ووصل العبارات .

(٣) أو التريض سيرا على الأقدام .

(٤) أى صح من التنزه .

(٥) الرى الصادق أو الدوكسا . Doxa — δόξα درجة من المعرفة أدنى من العلم اليقيني وأقرب إلى الظن والتخمين .

(٦) أى عندما نجد أن مضمون الحقيقة الذى ينطوى عليه الرأى الصادق هو السمة التى تتميز بها المعرفة العلمية وتحتوى عليها بدرجة أكبر . عندئذ لايكون أمامنا خيار بينهما ، فالأولى فى هذه الحالة أن نفضل المعرفة .

(٧) تذكرنا هذه العبارة بالعبارة الأخرى المشهورة التى وردت فى مقالة " الألفا " من كتاب الميتافيزيقا (١٠٨٠أ ٢١) : إن البشر جميعا يسعون بطبعهم إلى المعرفة .

الحياة كما يحبون معها التفكير والمعرفة . وليست الحياة (فى نظرهم) جديرة بالتكريم إلا بسبب الإدراك الحسى وبالأخص (بسبب) الابصار . والظاهر أنهم يقدرون هذه الملكة فوق كل حد لأنها فى علاقتها بسائر الادراكات الحسية تكاد أن تكون نوعا من المعرفة (١) . [ب ٧٤] بيد أن الحياة تفترق عن عدم الحياة عن طريق الادراك (٢) . ونحن نحدد الحياة (بوجود) الادراك والقدرة . فإذا انتزعت هذه القدرة لم تعد الحياة تستحق العيش ؛ ويبدو الأمر فى هذه الحالة وكأن الحياة - ومعها الادراك - قد قضى عليها . [ب ٧٥] وتتميز قوة (٣) الابصار عن سائر أعضاء الحس ، لأنها أشدها حدة ، ولهذا أيضا نقدرها تقديراً يفوق (كل ماعداها) . إن كل إدراك هو القدرة على معرفة شئ عن طريق الجسم ، كما يدرك السمع الانغام عن طريق الأذنين . [ب ٧٦] فإذا كانت الحياة جديرة بالاختيار بسبب الإدراك ، وكان الإدراك نوعا من المعرفة ، واذا كنا نفضل الحياة لأن النفس تستطيع أن تتوصل إلى المعرفة عن طريق الإدراك ؛ [ب ٧٧] ثم إذا كان الأحق بالاختيار بين شيئين هو دائما - كما قلت منذ قليل - ذلك (الشئ) الذى يتصف بنفس الصفة (المرغوبة) ؛ (إذا صح ماسبق) لزم أن يكون الابصار أجدر الادراكات الحسية (٤) بالاختيار وأشرفها جميعا ، وأن تكون

---

(١) راجع هذه العبارة من كتاب الشعر (٤ ، ١٤٤٨ ب ١٥) « وهكذا فإن السبب الذى يجعل الناس يستمتعون برؤية التشابه هو أنهم أثناء تأملهم له يجدون أنفسهم يتعلمون أو يستنتجون ، وربما يقولون : انه أهو ذاك (طبعة بنشر ، نيويورك ، ١٩٥١ - ص١٤-١٥ النص وترجمته) .

(٢) أى أن القدرة على الإدراك هى التى تميز الحى من غير الحى .

(٣) القوة والقدرة والملكة كلها كلمات تؤدى على اختلاف ظلالها معنى المصطلح الأساسى عند أرسطو وهو القوة والاستعداد (الديناميس dynamis- δύναμις الذى يمكن أن يصبح فعلا وتحققاً energeia- ἐνεργεία) .

(٤) أو أجدر الحواس .

المعرفة الفلسفية أولى بالاختيار من هذه الحاسة ومن سائر الإدرا
الحسية (بل) ومن الحياة نفسها، لأنها (أى المعرفة الفلسفية) هى
الحقيقة . وهذا هو السبب (الذى يدفع) الناس جميعا على المعر
المعرفة وتفضيلها على أى شئ آخر . [ب ٧٨] أما أن أولئك
يختارون الحياة العقلية (١) قادرون على أن يعيشوا أهنأ حياة ممك
فذلك ماسيتضح مما يأتى بعد . [ب ٧٩] يبدو أن من الممكن ا
عن الحياة بمعنيين : (فنحن نتكلم عنها) من جهة القوة كما
عنها من جهة الفعل . ونحن نصف جميع الكائنات الحية التى لها
وولدت قادرة على الإبصار بأنها (كائنات) مبصرة ، سواء أغم
عيونها عرضاً أو استخدمت قدرتها على الرؤية وأبصرت شى
ويصدق الشئ نفسه على العلم والمعرفة ، فنصف أحدهما بأنه الإست
والنظر الفعلى(٢) ونصف الآخر بأنه امتلاك المقدرة والحصول
العلم . [ب ٨٠] اذا كنا نميز الحياة من عدم الحياة على أ
امتلاك القدرة على الإدراك الحسى أو عدم امتلاكها ، وكنا نتكل
الإدراك بمعنيين ؛ بالمعنى اللغوى المعتاد من الاستخدام الفعلى للإدرا
وكذلك بمعنى امكان الإدراك (٣) (ويبدو أن هذا هوالسبب فى قول
النائم أيضاً يدرك) فقد تبين من هذا أننا نتكلم عن الحياة كذلك بمعن
فنحن نقول عن المستيقظ إنه يحيا بالمعنى الحقيقى والكامل للحياة ، و

---

(١) حرفيا : الحياة التى تتفق مع العقل وتهتدى به ، وهى الحياة التى يهبها صاحبها
والتأمل والتدبر الخالص .

(٢) أو المشاهدة التى تتحقق بالفعل – ويلاحظ القارئ أن أرسطو يحاول هنا أن
نظريته المعروفة عن القوة والفعل ، وهى التى طبقها – كالمفتاح السحرى ! – على
مجالات البحث (راجع على سبيل المثال الأخلاق الأويديمية ٢ ، ١ ، ١٢١٩ أ ٢٤ و
التعليقات) .

(٣) أى القدرة عليه والاستعداد له ، ولايزال أرسطو يتابع بحثه فى الادراك على
نظريته عن الوجود بالقوة والوجود بالفعل .

عن النائم انه حي لأنه يملك القوة على الانتقال إلى النشاط الفعلي (١) الذي يعد علامة على اليقظة وعلى الادراك الفعلي للأشياء. على هذا الأساس وبالنظر إلى هذه التفرقة (بين القوة والفعل) يحق لنا أن نقول إن النائم حي. [ب ٨١] ومادمنا إذاً نستخدم نفس الكلمة بمعنيين هما الفعل من ناحية والانفعال من ناحية أخرى(٢)، فسوف نقول إن الأول يعبر عن المعنى الحقيقي للكلمة أو في تعبير (٣). « فيعرف » على سبيل المثال تعني أن امرءا يستخدم معرفته أو يمتلكها، «ويرى» تعني أنه يبصر شيئاً أو أنه يملك القدرة على الابصار وفي الحالين يعبر المعنى الأول عن قيمة أعلى. [ب ٨٢] فعندما نكون بصدد أشياء تنطبق عليها نفس الكلمة المنطوقة، لا نتكلم عن «الأعلى» بمعنى «الأكثر» فقط، وانما نتكلم عنه كذلك بمعنى الأولى والأسبق (من الناحية المنطقية) (٤) وهكذا نقول على سبيل المثال إن الصحة خير أعلى درجة مما يسبب الصحة وأن (الشيء) الذي يكون بحكم طبيعته وفي ذاته جديراً بالاختيار هو خير يفوق ذلك (الشيء) الذي ينتج خيرا. بيد أننا نلاحظ أن نفس الكلمة « الخير » تقال على الاثنين معا، وان كانت لا تقال بنفس المعنى، لأننا نطلق صفة الخير على الأشياء النافعة كما نطلقها على الفضيلة. [ب ٨٣] ولهذا يجوز لنا

---

(١) أو الانتقال من حال القوة والاستعداد إلى حال الفعل والتحقق، ولكنه والكلمة الأصلية تفيد الانتقال إلى الحركة.

(٢) أي بمعنى الفعل هنا والآن من جهة والوجود في حال معين من جهة أخرى.

(٣) أو بدرجة أكبر وأكمل.

(٤) أي أن ارتفاع قيمة الشيء لا يرجع إلى الكثرة الكمية بقدر ما يرجع إلى الأولوية المنطقية — (يلاحظ أن أسلوب التقييم في هذا التحليل اللغوي أسلوب غريب ولكن يبدو أن التفرقة بين الأعلى والأدنى كانت شيئا مألوفا في الكتابات المعاصرة لأرسطو وفي كتاباته نفسها، فنراه يطبقها على شتى الميادين (راجع مثلا كتاب الخطابة ١ — ٧ وكذلك الفقرة السابقة ب ٣٣) ولعل وراء هذا التمييز "القيمي" بين الأعلى والأدنى وجهة نظر أوسع وأعمق في تسلسل نظام الموجودات وتفوق الوجود على المظهر.

أن نقول أن المستيقظ يحيا حياة أعلى درجة من (حياة) النائم و أن الفاعل بنفسه [1] (يحيا كذلك حياة) أعلى درجة ممن يمتلك النفس فحسب (ولو وضعنا الأولوية المنطقية نصب أعيننا لأمكننا أن نقول) إن الأخير يحيا لأن الأول حى ، ذلك أنه فى حال تسمح له بأن يعيش حياة الفعل أو الانفعال [2] . (ب ٨٤) إن الفاعلية تعنى فى كل الأحوال ما يلى : إذا توفرت لأحد الناس القدرة على القيام بفعل ومارسه فى الواقع ، (فإننا نقول عنه إنه فاعل) ، وإذا كان يمتلك عددا من القدرات ، قلنا إنه فاعل لو قام بممارسة أفضل هذه القدرات وأكبرها قيمة ، كأن يقوم عازف الناى مثلا بالعزف على ناى مزدوج ، فإذا كان يعزف الناى فهو إما أن يكون فاعلا على وجه الجملة أو فاعلا على درجة عالية (أى يعزف عزفا جميلا) ، وكذلك يكون الأمر فى حالات أخرى (عندما نستخدم كلمة فاعل) . يلزم إذاً أن نقول إن من يفعل (الفعل) على وجهه الصحيح إنما يبلغ فى فعله أعلى درجة . ذلك أن الذى يقوم بممارسة فعل من الأفعال بصورة جميلة ودقيقة إنما يضع هدفا (وهو الخير) نصب عينيه ويؤدى عمله بطريقة طبيعية (أى يفعل ما أملته عليه الطبيعة) . (ب ٨٥) إن فاعلية النفس ، كما سبق أن قلت ، تقوم - بصورة تامة أو على نحو التفضيل - على التفكير والتأمل العقلى . ولهذا يسهل علينا أن نرى ، كما يسهل على كل انسان أن يستنتج أن الذى يفكر تفكيرا صحيحا يحيا أقيم حياة ، وأن الذى يبذل أقصى جهده من أجل الحقيقة هو الذى يتفرد من

---

(١) أى الذى يستخدم قواه النفسية وملكاته ويطبقها بالفعل ، وسنرى بعد قليل أن أعلى الناس درجة هو الحكيم الذى يستخدم الجزء الأعلى من النفس ، أى يحيا حياة عقلية خالصة منصرفة إلى تأمل الموجودات .

(٢) أى أن علمنا بأن الأول يحيا حياة الفعل النشطة هو الذى يسمح لنا بأن نطلق صفة الحياة على الثانى الذى يقتصر على الحياة بالقوة ، وإن كان فى استطاعته أن ينتقل إلى حياة الفعل .

دون الناس بأفضل حياة ممكنة [١] ، وهذا مايفعله الانسان الذى يفكر ويتفلسف على أساس العلم المتناهى فى الدقة [٢] . وتتوفر الحياة الكاملة لأولئك الذين يمتلكون المعرفة الفلسفية عندما يتفلسفون . (ب ٨٦) ولما كانت الحياة عند كل كائن حى مساوية للوجود ، فمن الواضح أن الفيلسوف [٣] من دون الناس جميعا هو الذى يبلغ أقصى درجات الوجود بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة [٤] وخصوصا عندما يمارس أفعاله ممارسة فلسفية ويوجه فكره إلى أقرب الموجودات إلى المعرفة [٥] (ب٨٧) أضف إلى هذا أن الفاعلية الكاملة التى لايعوقها عائق تنطوى فى ذاتها على الفرح ، ولهذا كانت الفاعلية الفلسفية [٦] أكثر الأفعال بعثا على الفرح .

(ب٨٨) بيد أن الفرح تتفاوت علاقته بالفاعلية . فالشرب بفرح والإقبال على الشرب بفرح ليسا نفس الشئ . [٧] إذ لاشىء يمنع من أن يشرب إنسان دون أن يشعر بالعطش ، فيتناول شرابا لايوفر له متعة ، (ولا شىء يمنع) أن يحس مع ذلك بالفرح لابتناول الشراب بل لأنه يتفق له (عرضاً) ، أثناء جلوسه فى مكان ما ، أن يتأمل شيئاً أو يكون

---

(١) أى أعظم وأسمى حياة ممكنة والمقصود هو أعلى درجة ممكنة من الحياة ، ولا تكون حياة الانسان أقيم وأعظم من حياة غيره من الناس حتى يهبها للبحث عن الحقيقة ويعيش وفق ما يمليه عليه العقـــل .

(٢) حرفيا : وفق أدق معرفة ممكنة ، والمقصود فى رأى أرسطو هو التفلسف أو النظر الخالص الذى ينطلق من البحث عن المبادئ أو العلل الأولى .

(٣) يستخدم أرسطو كلمة المتدبر أو صاحب النظر الفلسفى Ho-Phronimos- ὁ φρόνιμος

(٤) لعله يريد أقصى درجات الوجود فى الشدة والعمق .

(٥) المراد بها المبادئ الأولى التى هى أبسط الموجودات وأيسرها على المعرفة ، لأننا لانعرف الأشياء التى يمكننا معرفتها إلا عن طريق .. هذه المبادئ – راجع الفقرة السابقة تحت رقم (ب ٣٨) .

(٦) حرفيا : الفعل النظرى الخالص .

(٧) هنا يعرض أرسطو نظريته فى الوجود بالذات (الوجود الجوهرى) والوجود العرضى عرضاً مبسطاً فى متناول الجميع ، ثم يعود فى الفقرة رقم ٩٠ إلى نظريته عن القوة والفعل –

هو نفسه موضع التأمل ، سوف نقول عنه (فى هذه الحالة) إنه يشعر بالفرح ويشرب بفرح ، ولكن فرحه لايأتى من الشراب ، كما أنه لايفرح بالشرب . وبنفس الطريقة نصف كذلك المشى ، والجلوس والتعلم وكل نوع (من أنواع) الحركة بأنه مفرح أو مؤلم، لالأننا نشعر عرضاً بالفرح أو الألم أثناء قيامنا بهذا الفعل ، بل لأننا جميعا نحس عن طريق هذا الفعل نفسه بالفرح أو الألم .(ب ٨٩) وكذلك نطلق صفة الفرح على تلك الحياة المفرحة التى يكون حضورها مفرحا بالنسبة لمن يعيشونها ، ولانتكلم عن حياة مفرحة بالنسبة لمن يكون فرحهم بالحياة متعلقا بشيء ما ، بل بالنسبة للذين تكون الحياة نفسها مصدر فرحتهم والذين يسعدون بالحياة ذاتها . (ب ٩٠) وبالنظر إلى هذه الاعتبارات نقول إن حياة المستيقظ أعلى درجة من حياة النائم وأن العاقل يحيا حياة أعلى درجة من الخالى من العقل ، كما نزعم أن الفرح بالحياة يأتى من استخدام الإنسان للنفس ، ففاعلية النفس هى الحياة الحقة . (ب ٩١) يمكن أن تكون فاعلية النفس على أنحاء مختلفة ، ولكن أهمها جميعاً هو أن يفكر (الإنسان) أعمق تفكير ممكن . فمن الثابت إذا أن الفرح الذى يصدر عن التفكير الفلسفى هو وحده أو هو على وجه التفضيل الفرح بالحياة . وهكذا تكون الحياة فى فرح (ويكون) الإحساس الحقيقى بالفرح أمرا يختص به الفلاسفة وحدهم أو يتعلق بهم على وجه التفضيل ذلك أن فاعلية أصدق أفكارنا التى تتغذى على أسمى مبادئ الموجود وتصر دائماً على الاحتفاظ بالكمال الملازم لها، هذه الفاعلية هى التى تتفوق على كل ماعداها من ألوان الفاعلية فى خلق الفرح بالحياة (ب ٩٢) ولهذا ينبغى على العقلاء أن يتفلسفوا لكى يستمتعوا بالأفراح الحقيقية الطيبة [١] (ب٩٣) (هل الحياة العقلية تجعل الانسان سعيدا ؟)

(١) يرجح الأستاذ "ديرنج" أن يكون "يامبليخوس" قد تصرف فى هذه الفقرة وأن تكون فى الفقرات الأربع التالية (من ب ٩٣ إلى ٩٦) قد تعمد اختصار فقرة أصلية مطولة عن السعادة واقتصر على ايراد شذرات متفرقة منها (راجع نظرية أرسطو عن اللذة والسعادة فى التعليقات) .

يمكننا أن نصل إلى نفس النتيجة ، لا عن طريق النظر في الجزئيات التي تقوم عليهـــا الحياة السعيـــدة فحســـب ، بـــل كذلك عن طريق تعمق المشكلة وتأمل السعادة [1] من حيث هي كل . فلنؤكد بوضوح أنه كما تكون علاقة الحياة العقلية [2] بالسعادة ، كذلك تكون علاقتها بنا تبعا لما طبعنا عليه من رفعة أوضعة [3] ذلك أن جميع الناس يجدون أن الشيء الجدير بالاختيار هو الذى يؤدى إلى السعادة أو الذى يكون نتيجة مترتبة عليها ، أضف إلى هذا أن الأشياء التى تجعلنا سعداء يكون بعضها ضروريا وبعضها الآخر مفرحا ب ٩٤) إننا نعرف السعادة إما بأنها ملكة عقلية [4] ونوع من الحكم ، أو بأنها فضيلة (أخلاقية) أو أعظم قدر ممكن من الفرح ، أو بأنها ى كل هذه الأمور مجتمعة. (ب ٩٥) اذا كانت السعادة هى القدرة على التفكير فمن الواضح أن الحياة السعيدة ستكون من نصيب الفلاسفة وحدهم وإذا كانت هى فضيلة النفس أو هى الحياة الغنية بالفرح ، فستكون أيضا من نصيب هؤلاء ، سواء اقتصرت عليهم وحدهم أو كانوا أحق بها من الجميع .لكن الفضيلة هى المسيطرة على دخيلتنا [5] ، وإذا شئنا أن نقارن شيئاً بغيره كانت ملكة التفكير هى أقدر (الأشياء جميعا) على بعث الفرح والسرور . وحتى لو زعم أحد أن كل هذه الأمور تجلب السعادة (فى الحياة) لوجب تعريفها (أى السعادة) بأنها هى القدرة على التفكير [6] (ب ٩٦) لهذا يجب التفلسف على كل القادرين عليه

---

(١) أى السعادة فى الحيـــاة .

(٢) حرفيا : كما يكون التفلسف بالنسبة للسعادة .. الخ .

(٣) أو تكون علاقتها بطبعنا ، تبعا لكوننا أناسا ذوى وزن أو أناسا قليلى الشأن (قارن الأخلاق النيقوماخية ٦ ، ١٣ ، ١١٤٤ ب ١) .

(٤) أى بأنها القدرة على التفكير والتدبر العاقل الحكيم φρόνησις -Phronesis

(٥) حرفيا : هى الأشد تحكما أو سيطرة على مافينا .

(٦) أى وجب تعريفها بأهم سمة تميزها وهى القدرة على التفكير .

لأنه إما ن يكون هو الحياة الكاملة نفسها ، أو هو — إن شئنا أن نذكر حالة واحدة — أنجح الوسائل التى تقود النفس إليها .[1] (ب ٩٧) لعل من المناسب الآن أن نسلط الضوء على موضوعنا بذكر بعض الآراء المعترف بها بوجه عام . (ب ٩٨) من الأمور الواضحة للجميع أنه مامن انسان يمكن أن يختارحياة قد تكون مزودة بأعظم قدر من الثروة والغنى ، بينما يكون هو نفسه محروماً من القدرة على التفكير ومصاباً بالجنون ؛ وهو لن يقدم أيضاً على ذلك لو أتيح له أن يتمتع بأروع اللذات فى الوقت الذى يعيش فيه كما يعيش بعض المجانين . ولامراء فى أن الناس تفر من البلاهة [2] أكثر مما تفر من أى شىء آخر ، ويبدو أن البلاهة مضادة للقدرة على التفكير ، والمرء يتجنب أحد هذين الضدين ويختار الآخر .(ب ٩٩) ذلك أننا حين نتحاشى المرض (فانما نفعل ذلك) لأننا نؤثر عليه الصحة . وعلى أساس هذه الحجة يبدو أيضاً أن القدرة على التفكير هى أقدر الأشياء جميعاً بالاختيار ، (مع العلم بأن هذا الاختيار) لايرجع فى الواقع إلى أى نتيجة مترتبة عليها [3] . (وهذا أمر تؤيده شهادة الرأى العام) .[4] فحتى لو امتلك امرؤ كل شئ ، وظل مع ذلك مريضاً فى نفسه المفكرة مرضاً لاشفاء منه ، فسوف تكون الحياة بالنسبة اليه شيئاً غير جدير بالاختيار ، لأن سائر مزاياه لن تغنى كذلك عنه شيئاً . [ب ١٠٠] من أجل هذا يرى جميع الناس — بقدر ما يتصلون بالفلسفة وتواتيهم القدرة على تذوق شئ منها — أن بقية الأشياء (تعد بجانبها) عديمة القيمة

---

(١) أى إلى الحياة السعيدة الكاملة .

(٢) البلاهة أو البلادة والحمق وانعدام التفكير .

(٣) أى أن القدرة على التفكير (أو ملكة التفكير) جديرة فى حد ذاتها بالاختيار دون أن يرتبط هذا بأى شئ مترتب عليها .

(٤) هذه إضافة من يامبليخوس .

ولهذا السبب لن يحتمل أحد منا أن يبقى حتى نهاية حياته فى حال السكر أو فى حال الطفولة .[1] [ب ١٠١] ولهذا السبب نفسه قد يكون النوم فى الواقع ممتعاً غاية الإمتاع ، غير أنه لايمكن أبداً أن يفضل (على اليقظة) ، حتى ولو سلمنا بأن النائم يتنعم بكل اللذات[2] الممكنة ؛ ذلك أن التصورات[3] (التى ترد) فى النوم كاذبة ، أما تصورات اليقظة فهى على العكس من ذلك صادقة . والحق أن النوم واليقظة لايختلفان إلا فى أن النفس غالباً ماتعرف الحقيقة وهى فى (حال) اليقظة أما فى النوم فهى تخدع على الدوام، لأن جميع الأحلام إنما هى صور وأوهام[4] [ب ١٠٢] وكذلك فإن كون الرجل العادى[5] يهاب الموت تدليلا على رغبة النفس فى التعلم والمعرفة . إنها تهرب مما لاتعرفه، من الغامض والمجهول ، وتسعى بطبعها إلى الواضح[6] والمعروف . ولهذا السبب قبل كل شىء نقــول إن أولئك الذين ندين لهم برؤية الشمس والنور هم أجدر الناس منا بالتكريم،وأن علينا أن نشعر نحو الأب والأم بالخشوع (والإجلال) لأنهما السبب (فيما ننعم به) من أعظم الخيرات ؛إنهما –كما يبدو لى– علة معرفتنا بشىء ورؤيته.ولهذا السبب نفسه نسعد بالموضوعات التى اعتدنا عليها وبالناس الذين ألفناهم ونصف هؤلاء الناس الذين نعرفهم بأنهم أصدقاء[7] . كل هذا يبين

---

(١) ترد هذه الفكرة أيضا فى الأخلاق الأوديمية ١ – ٥ ، ١٢١٥ ب ٢٢ .. –

(٢) أو كل الأفراح الممكنة .

(٣) أو التخيلات Phantasmata- φαντάσματα

(٤) أو لا واقع كاذب وخادع .

(٥) أو العامــــة .

(٦) أو المرئــــى .

(٧) هذا يهيب أرسطو بالتراث الاغريقى القديم الذى يبارك الخشوع للآلهة ، واحترام الأبوين والفرح بالصداقة والأصدقاء ، وكثيرا مانجد هذا فى كتاباته الأخرى ، راجع على سبيل المثال الأخلاق النيقوماخية المقالة الثامنة ، ١٦ ، ١١٦٣ ب ١٦ .

بجلاء أننا نحب المعروف والمرئى والواضح ؛ وإذا كنا نحب المعروف والواضح ، فنحن بالمثل نحب المعرفة والتفكير .[ب ١٠٣] وكما أن الأمر من وجهة نظر التملك (يقتضى) أن لاتكون الأشياء التى يحصل عليها الناس لمجرد العيش هى نفس الأشياء التى يحصلون عليها ليعيشوا سعداء ، فكذلك الأمر بالنسبة لملكة التفكير . إن التفكير الذى نحتاج اليه لمجرد الحياة ليس - فى رأيى - هو نفس التفكير الذى نحتاج اليه للحياة الكاملة[١] . ولابد أن نلتمس العذر للرجل العادى إذا قصر جهده على الجانب الأول ؛ صحيح أنه يصلى من أجل (الحصول على) السعادة (فى الحياة) ، ولكنه يشعر بالابتهاج اذا تمكن من مجرد العيش . وإذا وجد انسان يرفض أن يرضى بالحياة بأى ثمن ، فإن من المضحك حقاً أن لايتحمل كل جهد ويشق على نفسه بكل وسيلة لكى يحصل على ملكة التفكير تلك التى تمكنه من معرفة الحقيقة (ب ١٠٤) وفى وسعنا أن نعرف نفس الشىء مما سيأتى بعد إذا استطعنا أن ننظر إلى الحياة البشرية نظرة خالصة . عندئذ سنكتشف أن جميع تلك الأشياء التى تبدو للناس عظيمة ليست سوى لعب بالظلال. ولهذا يقال أيضا بحق إن الإنسان عدم[٢] وألاّ شىءٌ مما يخص الإنسان له ثبات (أو دوام) . فالقوة والعظمة والجمال أشياء مضحكة ولاقيمة لها ، وهى لاتبدو لنا على هذه الصورة[٣] إلا لعجزنا عن رؤية أى شىءٌ رؤية دقيقة .

---

(١) وهنا يكرر أرسطو بوضوح ماعرفناه من قبل من أن التفكير يدل من ناحية على الفطنة العملية فى الحياة كما يدل من ناحية أخرى على التفكير النظرى الخالص .

(٢) أو لاشىء ، واللعب أو الرسم بالظلال كلمة وردت فى محاورة "فايدون" لأفلاطون (أنظر التعليقات) .

(٣) أى أنها مجرد خيرات ظاهرية ، تخدعنا أو نخدع أنفسنا فنظنها خيرات حقيقية — ويردد "بؤتيوس" هذه العبارة بنفس الألفاظ تقريبا على لسان سيدة الحكمة الجليلة التى تواسى السجين المحكوم عليه بالموت وتشجعه على مواجهة مصيره بكبرياء " ان مايبدو لك جميلا لايرجع لطبيعته بل لو هن بصرك " — انظر عرض كتابه "عزاء الفلسفة فى مدرسة الحكمة" لكاتب السطـــور ..

[ب ١٠٥] ولو استطاع أحد أن يبلغ من حدة البصر مبلغ لينكويس(١) الذى يروى عنه أنه كان ينفذ ببصره خلال الجدران والأشجار فهل كان فى مقدوره أن يحتمل رؤية رجل (مثل ألكيبياديس المحتفى به) (٢) إذا رأى معه كل البؤس الذى ركب منه ؟ إن الشرف والشهرة (٣) ، اللذين اعتاد الناس على السعى وراءهما أكثر من أى شئ آخر ، يطفحان (فى الواقع) بحمق لايوصف، لأن من رأى شيئا من الأمور الأبدية سيجد من السذاجة أن يبذل جهداً فى سبيل هذه الأشياء، وأى شأن من شئون الإنسان دائم أو طويل العمر؟ إن ضعفنا وقصر حياتنا هما -- فى رأيى -- اللذان يجعلان هذا الشئ يبدو لنا عظيما [ب ١٠٦] لو أخذنا هذا فى الاعتبار فمن ذا الذى يملك أن يزعم بأنه سعيد ومبارك من منا نحن الذين نشأنا سواء بحكم الطبيعة منذ البداية (كما يقال عندما يسمح لأحد الناس بالانتماء إلى عبادة الأسرار) وكأن علينا أن نكفر عن ذنب جنيناه ؟ (٤) ألا أنها لحكمة إلهية من القدماء عندما قالوا إن على النفس أن تقدم الكفارة وأن حياتنا عقاب لنا على ذنوب كبيرة ارتكبناها . [ب ١٠٧] وان الصورة التالية لتوضح فى

---

(١) يذكر أفلاطون فى رسالته السابعة — التى كتبت فى نفس الوقت الذى ألف فيه أرسطو هذا الكتاب — اسم لينكويس الذى تغنت الأساطير بحدة بصره فى معرض حديثه عن اولئك الذين يعجزون عن فهم الفلسفة ويعجز لينكويس نفسه عن جعلهم يبصرون (الرسالة السابعة ٣٤٤ أ — انظر نصها فى كتابى المنقذ) .

(٢) الكيبياديس (من حوالى ٤٥٠ إلى ٤٠٤ ق.م.(هو الفارس الاغريقى التمس)صديق سقراط الجميل الذى قربه بركليس اليه وذاعت شهرته فى أثينا ثم تسبب فى نكبتها فى الحرب وفر إلى اسبراطه وانهم بالخيانه فى أواخر حياته . (ولم يرد حياته.)الا سم فى نص يامبليخوس ،وانما ورد عند بؤنتيوس (عزاء الفلسفة) الذى أخذه على الأرجح عن كتاب شيشرون هورتنزيوس أو الحث على دراسة الفلسفة .

(٣) أو المجد والسمعة الطيبة .

(٤) لعلها اشارة إلى عقيدة الأورفيين التى يتردد صداها فى عبارة أنكسمندر الوحيدة وعند الفيثاغورس وأفلاطون ، ولعلها ذات أصول شرقية .

رأي ارتباط النفس بالجسم توضيحا تاما . فكما يروى عن الثوريين من أنهم كثيرا ماكانوا يلجـأون إلى تعذيب المسـاجين بربط الأحياء (منهم) بجثث الموتى بحيث يجعلون الوجه فى مواجهة الوجه ويقيدون العضو بالعضو ، فكذلك يبدو أن النفس منتشرة فى الجسد وملتصقة بكل أعضائه الحاسة (١) . [ب ١٠٧] وإذاً فليس عند البشر ماهو الهى أو مبارك سوى هذا الشيء الواحد الذى يستحق وحده أن يبذلوا الجهد (من أجله) ، وأقصد به مايوجد فينا من العقل وملكة التفكير . ويبدو أنه وحده الخالد ، وهو وحده الإلهى من كل ماينطوى عليه كياننا (٢) . [ب ١٠٩] وان حياتنا ، على الرغم من أنها بطبيعتها شقية ومضنية قد نظمت بفضل قدرتنا على المشاركة فى هذه الملكة - تنظيما بلغ من الروعة حداً يجعل الإنسان يبدو إلهياً بالقياس إلى سائر الكائنات الحية . [ب ١١٠] ذلك أن الشعراء يقولون بحق « ان العقل هو الإله (الكامن) فينا (٣) ، كما يقولون إن حياة الإنسان (الغائية) تنطوى على جزء من الإله » . هكذا ينبغى على الإنسان إما أن يتفلسف أو يودع الحياة ويمضى من هنا (٤) ؛ إذ يبدو أن كل ماعدا ذلك إنما هو ثرثرة حمقاء ولغو فارغ .

---

(١) ربما يقصد أرسطو أن جميع الأعضاء الحاسة فى الجسم تمتلك الحياة .

(٢) أو من كل مافينا وما يضمه كياننا من ملكات وقدرات ..

(٣) ينسب يامبليخوس هذا النص إلى الفيلسوف أنسكاجوراس (من حوالى ٤٩٩ إلى حوالى ٤٢٧ ق . م . (الذى يروى أن العقل نوس) هو المبدأ المحرك الذى يكون الأشياء وينظم الكون ، ولهذا يمكن أن تقال هذه العبارة على الوجه التالى : ان النوس هو الاله الكامن فينا " .

(٤) راجع فى هذا الصدد محاورات أفلاطون التالية : " جورجياس ، ٥١٢ ، ثياتيتيوس ١٧٦ أ ب ، فيدون ٦٤ أ حيث نجد النصح باحتقار الخيرات الأرضية ، وممارسة الفضيلة والبحث عن السعادة فى الفلسفة . واذا كان أفلاطون يهتم بان يصبح الانسان مستقيما وعادلا - فاكثر الناس عدلا هو أقربهم إلى الله - فإن أرسطو يختلف عنه فى الاهتمام بالاعلاء من قيمة العقل والحياة وفقاً للعقل والبصيرة الفلسفية .

تعليقات وشروح

(ب ٢ — ٥) تقوم الفكرة الأساسية فى هذه الفقرات من النص على أن سمو الخلق فى ظل الفقر أفضل من الجاه والغنى مع الشر والانحطاط ، وأن السعادة لاتتوقف على امتلاك الخيرات والمظاهر الخارجية بل على الحالة النفسية الطيبة .وقد انطلق أرسطو من أفكار مشابهة وردت فى محاورات أوثيديموس (٢٧٨هـ — ٢٨٢د) والدفاع (٢٩ دهـ) والقوانين (٦٦١ أب) لأفلاطون . أما عن الفكرة التى ترد فى الفقرة (ب ٣) عن التعساء الذين يقدرون الثروة أكثر مما يقدرون خيرات النفس فيمكن الرجوع فيها إلى جمهورية افلاطون (٧ — ١ ، ١٣٢٣ أ ٢٣ — ٣٥) والأخلاق الأويديمية (٨ —٣ ، ١٢٤٨ ب ٢٧ — ٣٧) .-. (ب ٦) يعتمد النص فى هذه الفقرة على عبارة الاسكندر الافروديسى (فى شرحه لطوبيقا أرسطو) والتى يذكر فيها كلام أرسطو عن ضرورة التفلسف أوعدم ضرورته فى كتابه الحالى (البروتريبتيقوس) . أما العبارة المشهورة التى تحدثنا عنها فى المقدمة عن ضرورة التفلسف فى كل الأحوال فلم ترد فى هذا الكتاب بنفس الصيغة المأثورة ، وإن كانت الفقرة الأخيرة منه (ب ١١٠) تعبر عن معناها تعبيرا واضحا . (ب ٧ — ٩) يبدو أن « يامبليخوس » تدخل فى هذا النص بالاختصار والتعديل الشديدين. ولعل أرسطو كان يعبر فى الأصل عن الأفكار التالية التى نقدمها بترتيب الفقرات :

١ - نريد أن نتناول بالبحث دور الفلسفة فى الحياة العملية، وخصوصا أهميتها بالنسبة للسياسى أو رجل الدولة :

٢ - إن الجسد والأشياء المادية مجرد أدوات ، وسوء استخدام هذه الأدوات مضر، وضررها يصيب من يسىء استخدامها أكثر مما يصيب غيره ، ولهذا ينبغى علينا تحصيل العلم بطريقة استخدام الأدوات . وتشتد ضرورة هذا التحصيل عند السياسى لأنه أحوج الناس اليه .

٣ - ربما يكون أرسطو قد تعرض ضمنا لتفرقة أفلاطون الحاسمة بين التفكير والإدراك الحسى ؛ فالموضوعات التى يحققها الفكر هى المثل المتعالية ولهذا يتحرك الفكر الخالص فى عالم آخر هو عالم المعقولات المجردة ومن هنا يختلف العلم عنده اختلافا حاسما عن الرأى أو الظن ولا يتطابقان بحال . واذا تتبعنا النزعة الحسية عند أرسطو كما عرضها فى كتاباته عن النفس وجدنا أن صور المخيلة هى التى تحقق الملكة الموجودة فى العقل بالقوة تحقيقا فعليا، أى أنها تتحقق فى العقل الذى يمكن أن يعد فى هذه الحالة مرحلة راقية من ملكة التصور والتخيل . بهذا يكون الفـــرق عنده بين العلم والرأى فرقا فى الدرجة فحسب (إذ لا يحتاج العلم أن يكون مختلفا عن مجرد الرأى ، بشرط أن يقوم هذا الأخير على أساس متين - قارن الطوبيقا ٦ -٢ ، ١٣٩ ب ٣٣ - والتحليلات الثانية ١ - ٢ ، ٧٢ ب ٣) والملاحظ على كل حال فى هذا الموضع وفى الكتاب كله أن أفكار أرسطو تبدأ من التجربة لتنتهى إلى النظر الخالص ، وذلك على العكس من أفلاطون الذى يبدأ عادة من النظر ليصل أو لا يصل ! - إلى عالم التجربة .

وهذا فى الواقع تعبير عن التعارض الأساسى بين تفكير الرجلين ومنهجهما فى البحث - أما عن العبارة التى تبدأ بها هذه الفقرات من النص «لما كنا نتوجه بحديثنا إلى أناس من البشر » لا إلى أولئك الذين،

لهم حياة ذات طبيعة إلهية .. الخ فهى تذكرنا بعبارة مشابهة لأفلاطون تقول إن علينا أن نتكلم عن البشر لاعن الآلهة (القوانين ٧٣٢هـ) فهل يحق لنا أن نسأل : أكان أرسطو متأثرا بأفلاطون ، أم تأثر أفلاطون بأرسطو ؟! .

-- (ب ١٠ -- ١٧) تلمس هذه الفقرات فكرة أرسطو عن «الغائية» وهى الفكرة التى تتوج مذهبه وتطبعه بخاتمها . ولقد هوجمت فلسفته ولاتزال تهاجم بسبب هذه الفكرة، وأدينت ولاتزال تدان بتهمة تعويق تطور العلم الطبيعى الذى لايبحث ولاينبغى له أن يبحث عن الغاية ، وأنما يدرس أسباب الظواهر وعلاقاتها ببعضها البعض ليصوغها فى النهاية فى صورة رياضية وإحصائية تمثل قانونا عاما يحتمل التعديل . والحق أن فكرة الغائية عند أرسطو ليست فكرة تأملية مجردة كما يتصور بعض الباحثين، وإنما تقوم على وقائع تجريبية وتلخص عددا من أفكاره الأساسية . والعبارة التالية من « الكون والفساد » (٢ -- ١٠) تمثل رأية فيها : «إن الكون والفساد دورة خالدة (أزلية أبدية) ولهذا الاستمرار سبب لاغبار عليه ،وأقصد به انتظام الطبيعة (قانونيتها) وأنها تسعى دائماً إلى الأفضل . « وتلتقى فى الغائية بعض تصوراته الرئيسية : حضور العام أو «الصورة» (الأيدوس) [1] فى حياة الطبيعة المبدعة ؛ الخشوع والإجلال لدورة السماء ذات النجوم -- ، وهى الدورة التى تخضع لقوانين يستطيع العقل البشرى أن يعرفها ويحسبها --؛ الجمال الرائع الذى يتجلى فى كل كائن حى ناضج مزدهر سواء أكان هذا الكائن الحى نباتا أم حيوانا أم إنسانا (مصداقا لقوله فى «أجزاء الحيوان» إن الغاية النهائية التى من أجلها ينشأ شئ أو يكون قد نشأ -- هذه الغاية حلت محل الجميل ١ -- ٥، ٦٤٥ أ ٢٥) ؛ وأخيراً الحقيقة الثابتة التى تؤكد أن من بذرة واحدة ينشأ فرد من نفس نوع

---

(١) Eidos -- εἶδος

الفرد الذي تولدت عنه تلك البذرة ، ومن ثم يلد الإنسان الإنسان ، كما تقول عبارته التي يكررها في كثير من كتاباته -. والغائية - شأنها شأن أغلب أفكار أرسطو الرئيسية ، مستلهمة عن نبع افلاطون الجياش وإن كانت تأخذ على يديه صورة أخرى مختلفة عن صورتها عند أستاذه (قارن دورة الكون والفساد بالدورة الحيوية كما ترد على لسان ديوتيما في خطبتها المشهورة في محاورة المأدبة) . ويعبر كلام أرسطو في الفقرة (ب ١٤) عن نواة فكرته عن الغائية . فإذا كانت الصنعة البشرية - التي تتجه بطبيعتها إلى تحقيق هدف أو غاية - تحاكي الطبيعة ، فلابد أن يكون النظام الطبيعي نفســـه غائياً . بل إن الفيلسوف الذي يرتفع فوق العمال اليـــدويين وأرباب الحرف العـــاديين يقتبس نماذجه من تأمل «الطبيعة نفسها» - والسمو والرفعة المذكوران في الفقرة (ب ١٦) يبرزان غائية أرسطو في أوضح صورة . فالسامي هنا مرادف للكامل والإلهي (انظر الاخلاق النيقوماخية ١ - ١٢) . وكل ما أبدعته الطبيعة في رأية إلهي (أجزاء الحيوان ١ - ٥ ، ٦٤٥ أ ١٥ - ٢٠) . أما الحيوانات الدنيا فهي ناقصة أو غير سامية . وربما يرد أرسطو بهذا على كاتب آخر أراد أن يفسر الغاية الطيبة التي تقصد إليها الطبيعة فتصور أن كل الحيوانات ضارة ومؤذية . أما العبارة الأخيرة في (ب ١٧) « إننا نعيش لكي نفكر في شئ ونتعلم» فهي متفقة من عبارتين أخريين وردت الأولى أثنـــاء كلامه عن فيثاغورس وتأكيده أن الإله أوجد الإنسان لكي يعرف وينظر (ب ٢٠) ، وجاءت الثانية في معرض كلامه عن فاعلية النفس وأنها هي التفكير والنظر .

(ب ١٨ - ٢١) لاتزال هذه الفقرات من النص موضع اختلاف كبير بين العلماء ، إذ يشك البعض في صحة نسبتها إلى الكتاب الحالي والعبارتان المنسوبتان إلى فيثاغورس وأنكساجوراس مذكورتان في «الأخلاق الأويديمية (١ - ٥ ، ١٢١٦ أ ١١) . ويلاحظ من النص أن أرسطو يصف الطبيعة

بأنها إلهية ويجعلها فى كثير من الأحيان مرادفة للإله (أنظر ب ٥٠ من النص) ومن المعروف أن إله أرسطو هو المحرك الأول الذى لايتحرك كما أن «الإلهى» يشمل الطبيعة كلها (انظر كتاب الميتافزيقا، مقالة اللام ٩، ١٠٧٤ أ ٣٨ - ب ١٤ وكذلك ٧، ١٠٧٢ ب ٢٩) وعبارته المشهورة التى يقول فيها „ إن الإله والطبيعة لايصنعان شيئاً عبثا أو باطلا „ (عن السماء ١- ٤، ٢٧١ أ ٣٣) تؤكد أن الإله عنده هو الطبيعة نفسها-(انظر كذلك المؤلفات المجموعة تحت اسم أبقراط وكذلك مسرحية الطرواديات ليوريبيدز، البيت ٨٨٦ -) أما مايقوله فى (ب ٢٠) عن نظام الكون أو أى طبيعة أخرى فلعلـه يشير إلى الطرفين المتقابلين: دراسة الطبيعة والبحث فيها على طريقـة الفلاسفة الطبيعيين أو الأيونيين وعلى طريقته هو نفسه من ناحية، وتراث البحث الذى يبدأ من ناحية أخرى بالايليين ويبلغ ذروته فى نظرية أفلاطون عن المثل ومبادئ الوجود- ويرجح الأستاذ «ديرنج» سقوط أجزاء من النص كانت تقع بين الفقرتين ٢٠، ٢١ وهو أمر يدعو للأسف، لأن الفقرة الأخيرة توحى بأن أرسطو كان يمهد لفقرة لم تصل إلينا عن الصلة بين التبصر الخلقى والتبصر النظرى، بين استخدام العقل فى التفكير لتحقيق الغاية من وجود الإنسان، وواجبه أن يعمل كل شئ من أجل الخـير الكامن فى نفسه. ولا غرابة فى أن نتوقع إضافات مفقودة، لأن هذا الجمع بين «النظر والخير» هو أساس التراث المتصل من سقراط وأفلاطون حتى أرسطو الذى تقوم عليه النزعة الإنسانية القديمة بأكملها. ومع ذلك فالإشارة السابقة كافية لمعرفة موقف المعلم الأول الذى يتردد بوضوح فى مواضع أخرى من هذا الكتاب وفى الأخلاق إلى نيقوماخوس. ويكفى أيضا لتعزيز هذا الموقف أن نراجع العبارات التالية المتناثرة فى تضاعيف الكتاب: „ ويشعرون بالخجل من أن وضعهم الحاضر لايحفزهم على النهوض بما يرونه واجبا عليهم „ (ب ٢)، „ نحن جميعاً نختار مايكون فى نفس الوقت

ميسرا ونافعا ، ومن ثم يجب الاعتراف بأن الفلسـفة تملك هاتين الصفتين ,,(ب ٣١) ،«ومن ذا الذى يمكنه أن يمثل لنا المعيار الدقيق ويكون لنا بمثابة الدليل الهادى إلى الخير غير الإنسان الحكيم ؟ إن اختياره يتم على أساس العلم »(ب ٣٩) ، « ما من شئ يمكن أن يبدو لنا خيرا إن لم تتحقق الغاية منه عن طريق النشاط العقلى »(ب ٤١) ، ... « وبهذه الطريقة نفسها يتحتم على السياسى أن تكون لديه معايير معينة يستمدها من الطبيعة نفسها ومن الحقيقة ويستعين بها فى الحكم على ماهو عادل » (ب ٤٧) ، « إن سلوك الفيلسوف وحده هو السلوك (أو الفعل) الصحيح »(ب ٤٩)، « وعلى الجملة فنحن نكتسب عن طريق هذه المعرفة كل ماهو خير (ب ٥١)« ، ... . إن كل ماهو خير للإنسان ونافع للحياة إنما يكمن فى الفعل والممارسة لافى مجرد المعرفة (النظرية) بالخير ، «إننا لانحيا حياة طيبة (جميلة ونبيلة) عن طريق معرفتنا ببعض الحقائق عن الموجود ، بل من خلال عملنا الطيب » (ب ٥٢) أضف إلى هذا كله مايقوله شيشرون « لقد ولد الإنسان ، كما قال أرسطو ، لأمرين : ليعقل ويعمل ، وهو لهذا أشبه بإله فان » . وكل هذه النصوص تؤكد اقتران الفكر بالعمل عند أرسطو ، كما تؤكد مايقوله بعض المحدثين والمعاصرين (ماركس وفيتشتين مثلا) من أن التفلسف فى صميمه فعل ، مهما اختلفوا فى مفهوم هذا الفعل . يبقى أن نقول إن أضعف نقطة ينفذ منها الناقد إلى النظرية الغائية هى هذه: فأعلى أشكال المعرفة عند أرسطو هو معرفة الغاية والـ «لماذا» . ولكن ماالذى يضمن أن ينصرف المتفلسف « الذى يثبت بصره على الطبيعة نفسها » ويستخدم عقله استخداما صحيحا – ما الذى يضمن أنه سينصرف إلى فعل الخير أو يفكر فى القيام به أو يجده إن حاول طلبه ؟ ألا يقدم تاريخ العالم القديم والحديث ألف دليل ودليل على أن أبشع الشرور لم يأت إلا من الذين يسمون بالعقلاء ويبلغون من « العلم » درجات ودرجات ؟ ! ألا يزيد العقل من شرور من لايكون خيراً بطبعه ؟!

وكيف نفسر نحن العرب مظالم الاستعمار وفظائع الصهيونية ومظاهر العدوان والتعذيب والقهر فى أوطاننا وفى عالمنا المعاصر ؟! – (ب ٢٢ – ٣٠) يبدو أنه لن يمكننا أن نقطع بأن هذه الفقرات مأخوذة عن كتاب أرسطو الأصلى (البروتريبتيقوس) . صحيح أنها تشير إلى بعض الأفكار التى يتناولها أرسطو بالتفصيل فى مواضع أخرى من الكتاب ولكنها تتضمن أفكاراً ووجهات نظر أخرى لاترد فى الشذرات الباقية منه . ولعل الأرجح أن تكون مقتطفة من كتاب آخر من كتب أرسطو المفقودة . ونستطيع على كل حال أن نقسم نصوص هذه الفقرات إلى ثلاثة اقسام : (١) فالقسم الأول (من ٢٢ إلى ٢٤) أرسططالى بحت وإن كان يامبليخوس قد غيّر فيه تغييرات طفيفة – والعبارة الأولى فى الفقرة (٢٣) تقول : لما كان النظام (أو العقل) يسود الطبيعة كلها ... الخ والكلمات الأصلية تفيد أن الطبيعة تملك العقل . وعبارات أرسطو واستعاراته التى يتحدث فيها عن الطبيعة التى تحيا وتعمل الخير وتريده ... الخ تدل على انتظام سير الأحداث الطبيعية وخضوعها لقانون يحكمها . والملاحظ فى هذه الفقرة نفسها أن أرسطو لايكاد يقدم فكرته عن اتجاه الطبيعة نحو الهدف (ب ٢٣) حتى يفاجئنا بكلام جديد عن تقسيم الإنسان إلى نفس وجسد ، ثم تقسيم النفس إلى جزء غير عاقل وآخر عاقل يبلغ زروته فى العقل (النوس) . فهل يؤكد هذا أن الناقل قد أسقط أجزاء من كتابه أو أقحم عليه أجزاء أخرى من كتاب لانعلمه ؟ (٢) القسم الثـــانى (من ٢٤ إلى ٢٨) يقوم على التفرقة المعروفة بين الغاية وبين ما يكون وسيلة لغاية ، ويؤكد أن الفعل العقلى الذى يمارس لذاته أعلى قدرا وأكبر شرفا من أى فعل آخر يتوسل به لغاية غريبة عنه . وقد سبق أفلاطون إلى الفكرة نفسها (أنظر مثلا محاورة جورجياس ٤٦٧ د) كما وردت عند أرسطو لأول مرة فى الجدل

أو الطوبيقا (٢–٣، ١١٠ ب ١٨) قبل أن تصبح حجة يلجأ اليها باستمرار .

(٣) والقسم الثالث (من ٢٨ إلى ٣٠) قد أصابه تعديل كبير على يد يامبليخوس ، ولعله لم ينقله عن كتاب أرسطو الضائع ، بل عن مصدر آخر يرجح الأستاذ « فلاشار » أنه كتاب بنفس العنوان لفرفوريوس (تلميذ أفلوطين وكاتب سيرته) ، ولهذا نجد فى النص تأثيرات رواقية وأفلاطونية محدثة وفيثاغورية جديدة . ومع ذلك لا يمكننا أن نجرد النص تماما من الروح الأفلاطونية والأرسطية . فتقسيم وظائف النفس والحياة عموما إلى نامية أو غاذية (نباتية) وحاسة (حيوانية) وناطقة تقسيم أرسطى معروف ، والقول بأن العقل (نوس) هو العنصر الإلهى فى الإنسان يرد بوضوح فى الفقرة الأخيرة من الكتاب الذى بين أيدينا (١١٠) كما يعبر عنه فى الأخلاق النيقوماخية (المقالة العاشرة ، ٧ ، ١١٧٧ ب و ١١٧٨ أ ٨) وكذلك عند أفلاطون فى محاورة ثيآيتيتوس (١٧٦ ب) .– (ب ٣١ – ٣٧) يلاحظ أن تعبير الأيسر والأنفع لا يقصد به التقييم الأخلاقى ، وإنما يقصد به الأولوية وتقديم المبدئى على الثانوى والأصل على الفرع ، وهى حجة يلجأ إليها أفلاطون وأرسطو . والمعنى فى (٣٣) واضح : إن العناصر (أو العوامل) البسيطة أوضح وأقرب إلى المعرفة من الأشكال المتنوعة التى تتجلى بها فى عالم الظواهر ونتصور عادة أنها أيسر منها فى المعرفة ؛ فالحروف البسيطة أسهل فى المعرفة من المقاطع .. الخ ولهذا يحتل الحرف فى سلم الأولويات مكانا أعلى من المقاطع والكلمات لأنه هو الشرط اللازم لوجودها وتساق الحجة لإثبات أن تحصيل المعرفة الفلسفية ممكن ونافع وميسور وهو تعبير عن الدعوة إلى التفلسف والحث عليه وتأكيد لصحة نسبته لكتاب أرسطو الذى يشغلنا .

وترد كلمة أيتيا (١) (العلل) فى سياق هذه الفقرة خصوصاً

---

(١) τὰ αἴτια – Ta Aitia أو αἱ αἰτίαι – Hai Aitiai وتعرف عادة بالعلل .

بعد الكلام عن قيمة التنظيم والتحديد في تيسير المعرفة . وحديث أرسطو عن العلل الأربع المشهورة تحديد لفلسفته عن الغاية وتوجيه إليها ، وهو كذلك تعبير عن تفكيره في أصول المعرفة وترابط الموجودات في نظام على إن «العلة» تجيب على سؤالين . فنحن نجيب على السؤال « عن أى طريق ؟ يذكر السبب أو العلة ، مصداقا لقوله فى كتاب الطبيعة (٢-٣ ، ١٩٤ب ١٩) : « ولكننا لانبلغ المعرفة قبل أن ندرك السبب فى كل موضوع » .

أما السؤال : مم يتكون شىء ؟ فنجيب عنه بذكر المادة والصورة « فالحروف هى علة المقاطع ، والعناصر علة الأجسام » . وتحدد الصورة بذكر « التعريف ، والكل أو التركيب والشكل » (الطبيعة ، ٢-٣ ، ١٩٥أ ٢٠) . وكل هذا يدل على أن تعليم الفلسفة فى أكاديمية أفلاطون (التى عاش فيها أرسطو كما ذكرنا طالبا ومعلما وقضى فيها ثلث حياته) كانت تلتقى فيه نظرية المعرفة والمنطق ونظرية الوجود (الأنطولوجيا) فى نسيج واحد . ويصور لنا أرسطو العلل الأربع المشهورة على هذا النحو : (أ) مايتكون عنه الشىء كالتمثال المكون من البرونز (ب) الشكل أو النموذج أى تفسير مايكون أساسياً بالنسبة للشىء أو لوجوده ، وأنا أقصد بذلك النوع أو حدود التعريف (الطبيعة ، ٢-٣ ، ١٩٤ب٢٦) (ج) بداية التحول أو الحركة ، كالناصح أو الأب بالنسبة للطفل وبالجملة ما يحدث أثرا أو نتيجة فعلية (د) الهدف والغاية أو ال « لماذا » ، كالصحة بالنسبة للتنزه . — ويلاحظ القارىء أن العلة الثالثة هى وحدها العلة أو السبب بمعناه الحقيقى ، أما العلتان الأوليان فهما «مبادىء» الكون والنشوء ، وأما الرابعة التى تعبر عن المبدأ والغاية فى نفس الوقت فقد شرحها فى محاورته « عن الفلسفة » . والمهم أن العلل الأربع كانت عند أرسطو بمثابة أداة للعمل فى يد الباحث ، أو بمثابة الخطة والمنهج الذى يطبقه على بحوثه المختلفة .

وفى نص الفقرة (٣٦) يذكر أرسطو فى معرض كلامه عن العلل والعوامل الأولية الهواء والنار (عند الفلاسفة السابقين على سقراط) والعدد (عند

الفيثاغوريين) والطبائع أو الموجودات الأخرى (كالمثل عند أفلاطون ، وقد ذكرها أيضا فى مقالة « الثيتا » (من كتاب الميتافيزيقا ٨ ، ١٠٥٠ ب ٣٤) وهو بهذا كله إنما يؤكد حجته عن أسبقية المبدأ والأصل على ما يترتب عليه وينتج عنه عن طريق الأمثلة التى يستمدها عادة من التراث الفلسفى السابق عليه – أما كلمة «الطبيعى» فيريد بها الشىء الذى يكون وجوده متفقاً مع الطبيعة وملائماً لها .

– (ب ٣٨– ٤٢) هذه الفقرات موجهة بصفة خاصة إلى معاصره « إيزوقراطيس »[1] (٤٣٦ – ٣٣٨ ق . م) الذى انتقد منهج التعليم فى الأكاديمية نقداً قاسيا وإن كان مهذباً (أنظر مجموعة خطبه المعروفة « أنتيدوزيس » من ٨٤ إلى ٨٦ وكذلك ٢٨٥) مؤكدا فيها «أهمية المنفعة » فى توجيه الشباب . وقد سبق لأفلاطون نفسه فى محاورة فايدروس أن وصف منهج ايزوقراط فى التربية (دون أن يذكر اسمه) بأنه « تلقين » على حين أن منهجه هو نفسه يقوم على تحويل النفس بكليتها « أى تغيير اتجاهها من الظلام إلى النور ، من الظن والتخمين والمعرفة الحسية إلى المعرفة بالمعقولات والمثل ذاتها (الجمهورية ، ٥١٨ جـ ، ٥٢١ جـ ، ٥٢٥ جـ ،

---

(١) أيزوقراطيس كاتب ومرب ومعلم خطابة . أسس فى أثينا – حوالى سنة ٣٩٢ ق.م – مدرسة لتعليم فنون الخطابة اجتذبت الشباب من أنحاء البلاد اليونان وتخرج فيها عدد كبير من الكتاب والساسة والخطباء والمؤرخين . وقال عنها شيشروج الذى تأثر به كبيرا : " كانت أشبه بحصان طرواده لا يخرج منها الا القواد "وقد افتتح أفلاطون أكاديميته بعد أن أسس ايزوقراط مدرسته بقليل واشتد المنافسة بينهما . مات بعد هزيمة أثينا أمام جيوش فيليب المقدونى فى معركة خايرونيا . بقيت تسع من رسائله وواحد وعشرون خطبة التى كان يكتبها التلاميذه «وزبائنه» ليلقوها فى دور القضاء ولم يواجه بها الجمهور لإعتلال صحته ، وكلها تتميز بجمال الأسلوب والإيقاع الشعرى وتحتوى على آرائه فى تربية الشباب تربية عملية وأخلاقية تهتم بالقيم الأنسانية الشاملة وتنادى بحضارة يونانية تتعدى حدود المدن المستقلة وتصمد الأمبراطوية الفارسية . وكتابه " الأنتدوزيس " Antidosis – الذى يحتمل أن يكون كتاب أرسطو هذا ردا عليه – يضم خطبه التى تعبر عن فلسفته فى تربية الشباب كما تسجل صراعه مع الأكاديمية والمدارس الأخرى المعاصره . وقد كتبه كما قال بنفسه وهو فى سن الثانية والثمانين ...) .

٥٣٢ ج) . والملاحظ فى النص ورود كلمة « الفعل » [١] أو التحقق التى تعبر عن فكرة أساسية فى فلسفة أرسطو التى أشرنا مراراً إلى أنها فلسفة فعل (وهى فى النهاية فكرة استمدها من أفلاطون) . فغاية الشىء عنده (التيلوس) [٢] هى تحقيق فعله الخاص به ، وكل شئ فى الطبيعة يتجه نحو تحقيق هذا الفعل المتسق المنظم الذى يتعلق بالشىء ويلائم طبيعته — (ب ٤٣ — ٤٥) يغلب الأسلوب البلاغى والخطابى على هذه الفقرات ، ولعل الهدف منه هو تصوير الحجة المنطقية الواردة فى الفقرة السابقة عليها . ويلاحظ أن أرسطو (فى الفقرة ٤٤) يلعب بالمعنيين المفهومين من كلمة النظر (ثيوريا) هما التأمل الفلسفى من ناحية ، ومشاهدة التمثيل والتفرج عليه من ناحية أخرى ، وهى إشارة تفيدنا فى البحث عن اشتقاق الكلمات والنظر فى معانيها الأصلية التى كانت تدل عليها فى السياق الإجتماعى والحضارى وحياة الناس العملية والحسية ... — (ب ٤٦ — ٥١) هذه الفقرات من النص هى أكثر فقرات الكتاب إثارة للخلاف بين العلماء. وقد استند « ييجر » (فى كتابه المشهور عن أرسطو ، برلين ، ١٩٢٣ ، ص ٩١) إلى مثل هذه العبارات « من الطبيعة نفسها ، من المبادىء الأولى ذاتها » استند إليها لتأييد رأيه فى أن أرسطو يقف فى كتابه هذا (البروتربتيقوس) على أرض النظرية الأفلاطونية المعروفة عن المثل . ولعله قد استوحى نموذج المشرع — الذى يستمد معاييره وقوانينه الثابتة من الطبيعة نفسها والحقيقة من محاورة السياسى لأفلاطون (٢٩٦ هـ — ٢٩٧ أ) ، حيث يتكلم هذا عن المعيار الدقيق لسياسة المدينة وادارتها ويستخدم استعارة الملاح . ولعل أرسطو أيضا قد تناول نفس الموضوع فى احدى محاورات شبابه بعنوان « السياسى » ، وإن كنا لن نتحقق من ذلك أبداً بسبب ضياع هذه المحاورة التى لم يبق منها سوى شذرات ضئيلة . مهما يكن الأمر فإن أرسطو ينطلق

---

(١) الفعل أو العمل **Ergon-** ἔργον

(٢) **Telos-** τέλος

من عبارته المشهورة « الفن محاكاة للطبيعة » ثم يرتقي معها سلم الحجج البلاغية والخطابية . فالمشرع أو رجل الدولة والسياسة يختلف عن أرباب المهن والصنائع فى أن هؤلاء يحاكون الطبيعة ، أما هو فيتلقى نماذجه من الطبيعة نفسها ، أى من المشاهدة المباشرة للأحداث الطبيعية ، ومن المبادىء الأولى ذاتها ، أى من البدايات التى ينطلق منها الفكر والمبادىء أو البدايات الأولى (١) مصطلح مألوف فى لغة أرسطو ، حدده فى الطوبيقا ١-١ ، ١٠٠ ب ١٨ - كما أن تعبيره « من الحقيقة ذاتها » (٢) وارد فى كتاب الطبيعة ١-٥ ، ١٨٨ ب ، ٢٩ ، وأجزاء الحيوان ١-١ ، ٦٤٢ أ ١٩ ، والخير ذاته « (٣) فى الأخلاق الأويديمية ١ - ٨ ، ١٢١٨ ب ٨ ومقالة الألفا من الميتافيزيقا ٤ ، ٩٤٥ أ ١٠) إن أرباب المهن وأصحاب الصنائع يقفون عند محاكاة الطبيعة ، ويقلدون صورا منها من الدرجة الثانية . أو الثالثة (كما تقول جمهورية أفلاطون ٥٩٩ د) ، أما الفيلسوف فهو وحده الذى يتأمل الموجود ذاته على حدة (كما يقول أفلاطون فى السياسى ٤٧٦ د ، ٥٠٧ ب) وهو وحده الذى يحاكى المبادئ الأولى (ب ٤٨ من هذا الكتاب) .

هل معنى هذا أن أرسطو يحاكى بدوره أفلاطون ؟! الواقع أن الأمر على خلاف هذا . فبينما يحاكى الفيلسوف عند أرسطو المبادئ الأولى كما ذكرنا ، نجد عند أفلاطون أن السفسطائى - لا الفيلسوف - هو الذى يحاكى الموجودات (السفسطائى ٢٣٥ أ) . وربما استوحى أرسطو عبارته المشهورة « الفن يحاكى الطبيعة » من قول أفلاطون فى محاورة السياسى (٢٧٤ د) أن الصنائع التى تخدم الإنسان وتحافظ على بقائه تعمل على غرار الكون كله وتحاكى نموذج النظام السائد فيه . أما الصورة الجميلة

---

(١) Ta Prota- τὰ πρῶτα

(٢) an autes tes alytheias — ἀπ' αὐτῆς τῆς ἀληθείας

(٣) Auto to agathon- αὐτὸ τὸ ἀγαθόν

التى يعبر بها أرسطو عن المشرع الفيلسوف ويقول فيها إنه هو وحده الذى يحيا وبصره مثبت على الطبيعة فقد أخذها عن نص مشهور فى محاورة الجمهورية لأفلاطون (٥٠٠ ج د) . وأما استعارته الجميلة التى يشبهه فيها بالملاحم فقد استمدها كما يرى ييجر (فى كتابه المعروف بايديايا ، الجزء الثالث ص ٢٤) من الكتابات الطبية فى عصره ، وهى التى دونت فى رأى بعض العلماء حوالى سنة ٣٥٠ ق . م ونقل عنها أرسطو كثيرا من صوره واستعاراته وتشبيهاته . والفقرة الأخيرة (ب٥١) تشير إلى نظرية أرسطو المعروفة عن أن الإنسان نفسه هو الذى يخلق أعماله ، وهو الأصل الذى يتولد عنه سلوكه الخلقى ، وغير الخلقى . وهذا دليل على أن مثل هذا السلوك يسبقه الاختيار الحر (1) ، كما أن الهدف من الفعل تحدده المعرفة بالخير . ولهذا يربط أرسطو بين المعرفة النظرية والأخلاقية فى سياق متكامل ويؤكد العمل كما يؤكد النظر فى وقت واحد .

(ب ٥٢ – ٥٧) الفقرة الأولى مأخوذة من كتاب آخر ليامبليخوس (غير شذرات نصوصه التى تحمل نفس عنوان كتابنا الحالى) وهو كتابه عن العلم الرياضى بالإجمال ، ٧٩ (طبعة ن . فستا ، توبينر ١٨٩١) ولهذا يستبعد بعض العلماء (مثل ديرنج وشنيقايس) أن تكون مقتطفة من كتابه الحالى « الحث على الفلسفة » وان كانا مع ذلك يدمجانها فى النص لقربها من لغة أرسطو ومن الفقرة السابقة عليها مباشرة . والملاحظ أن أرسطو يعتمد على حجته عن سهولة التفلسف لتأييد دعوته إليه وحث القارئ عليه ، بل إن الكلمات التى يختتم بها الفقرة (٥٦) لتشهد على إيمانه القوى بامكان التوصل إلى الحقيقة ذاتها كما تعبر عن ذلك أيضا بعض كتبه التعليمية (قارن أجزاء الحيوان ١ – ١ ، ٦٤٢ أ ١٨ والطبيعة ١-٥ ، ١٨٨ ب٢٩) والغريب حقا أنه يثنى على الفلسفة ويؤكد سهولتها بكلمات وحجج ليست سهلة على الاطلاق ! (كما ترى مثلا فى الفقرتين ٥٥ ، ١٠٣) ويلجأ فى هذه الحجج كما أشرنا مرارا إلى أسلوب المبالغة الخطابية الذى كثيرا ما تتصادم فيه الأدلة وتتعارض وتتناقض . .

---

(1) Proairesis- προαίρεσις

(ب ٥٨ – ٧٧) يتردد فى هذه الفقرات أكثر من تعبير عن أداء الفعل وعن الواجب وما ينبغى عمله ، وكلها أفكار أفلاطونية نجدها فى محاورتى جورجياس (٥٠٣ هـ) والجمهورية (٣٤٦ هـ) حيث يتحدث أفلاطون عن أصحاب الحرف والصنائع الذين يضعون عملهم نصب أعينهم وتقوم نفس الفكرة بدور كبير فى فلسفة أرسطو ، ويكفى أنه يطبقها على الطبيعة فى عبارته المشهورة التى سبق ذكرها أكثر من مرة : أن الطبيعة لاتصنع شيئا عبثا . والموضوع هنا هو العمل الذى يقوم به العقل ، ويبدو من بداية النص المفاجئة أنه كان مسبوقاً بجزء مفقود . والمهم أن الفقرات (٥٩ – ٦١) تنتهى إلى أن العقل هو الجزء المتحكم فى النفس ، وأنه هو وحده أو فى المقام الأول ذاتنا الحقيقية . هذا الانسجام بين الانفعال والعقل وبين العاطفة والمنطق ، ركن أساسى فى الأخلاق الأرسطية ، بل إنه (على حد تعبير الأستاذ ديرلماير فى تعليقه على كتاب الأخلاق الكبرى ، دار مشتات وبرلين ١٩٥٨ ، ص ٤١٢ – ٤١٩) هو التحول الكوبرنيقى أو الثورة الكوبرنيقية فى فلسفة الأخلاق (نسبة إلى كوبرنيقوس الذى قال بمركزية الشمس وبذلك بدأ التحول التاريخى فى النظرة الكونية والحضارية الذى نقل الإنسان من العصر الوسيط إلى عصر النهضة والعصر الحديث) . وسواء أكانت فكرة هذا التجانس ذات أصل أفلاطونى (كما يرى ديرلماير) أم فكرة أرسطية خالصة ، فإنها علامة هامة على النزعة الإنسانية فى الأخلاق .

وكلام أرسطو عن جزء النفس الذى يحقق فضيلته الخاصة به أو عمله الخاص به (ب ٦٠ وكذلك ٦٥ ، ٧٠) يقوم على الفلسفة التى صاغها أفلاطون فى الجمهورية (٣٥٢ أ – ٣٥٣ هـ) . أما كلامه اللاحق (ب ٦١ ، ٦٢) عن الارتباط بين فضيلة هذا الجزء العاقل من النفس وبين الشرف والقيمة فهو يعبر عن تفكير أرسطو ووجهة نظره الخاصة التى تؤكد أن الرقى على سلم الغايات ملازم للتصاعد فى سلم القيم ،

وهو أمر لاينفصل عن فلسفته الغائية بوجه عام — وبقية الكلام الذى يؤكد أن الجزء المذكور هو ذاتنا الحقيقية يأخذ تعبير « الجزء الصغير » من جمهورية أفلاطون (٤٤٢ جـ) ولكنه يترجم بعد ذلك عن أفكار أرسطية أصيلة تجد ما يشبهها فى كتاب الميتافيزيقا (مقالة) الايتا ٣ — ١٠٤٢ ب ٢ ، ومقالة الزيتا ١٠ ، ١٠٣٦ أ ١٧) . وهذا الجزء نفسه — وهو الجزء العارف الذى يعد وحده أو مع أجزاء النفس الأخرى أكثر قيمة من بقية النفس مجتمعة — يذكرنا أيضا بمحاورة السياسى لأفلاطون (٢٥٨ — ٢٦٠) . ومع أنه لم يرد فى سائر كتابات أرسطو بهذه الصيغة ، فهو مرادف عنده للعقل (نوس) . ولما كان النظر عند أرسطو لاينفصل كما قلنا عن العمل ، فاننا نجده يذكر « المعرفة المنتجة » (فى الفقرة ٦٩) . وقد كان تقسيمه للمعرفة إلى معرفة نظرية وأخرى عملية مثاراً لسوء الفهم الطويل ، وربما أوحى أرسطو نفسه بذلك فى بعض الأحيان عند حديثه عن المعرفة النظرية حديثاً يفهم منه أنها رؤية سلبية ، مع أن الحياة الفلسفية فى رأيه وبكلماته نفسها « فعل مستمر » (قارن الأخلاق النيقوماخية ١٠ — ٧ ١٢٠٤ ب ٢٥ — ٣٢) وليست نوعاً من التهدئة أو السكينة والراحة من متاعب الحياة . فلقد كان أرسطو نفسه رجل عمل ، ومن الطبيعى أن يكون العمل شعاره فى الحياة . وكلامه عن الحياة النظرية لايراد به الحياة الموهوبة للتأمل الخالص (كما تصور ييجر وجوتييه فى كتاب الأول عن أرسطو وكتاب الثانى عن الأخلاق النيقوماخية — لوفان ١٩٥٨ — ١٩٥٩) وإنما يراد به حياة الدرس والبحث العلمى التى لاتنفصل عن حياة الفعل والعمل ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان هنالك معنى لربطه بعد ذلك بين الحياة الفلسفية التى تتسم بالحكمة والتبصر وبين الفضيلة والسعادة ، ولما استطعنا أن نجد فى أنفسنا هذا التعاطف الشديد مع الفقرة الختامية من الكتاب . — ويحتمل أن يكون يامبليخوس قد تدخل بالتغيير أو الحذف فى الفقرات السبع الأخيرة (من ب ٧٠ إلى ٧٧) التى تعرض حجة متسقة متماسكة :

ويلاحظ التقارب الشديد بين الفكرة الواردة في العبارة التي تبدأ مع الفقرة (٧١) وبين الفكرة التي جاءت في جمهورية أفلاطون (٧-١ ، ١٣٢٣ب ١٣ — ١٦) . ويقارن « ييجر » في كتابه عن أرسطو (ص ٦٩) بين الفقرة (٧٢) وبين نص في مقالة الألفا من كتاب الميتافيزيقا (ألفا ١ - ٩٨٠أ ٢١ — ٢٨) ويقول إن العبارة المشهورة التي يبدأ بها هذا الكتاب الأخير (إن البشر جميعا يسعون بطبيعتهم إلى المعرفة) تعد صورة مكررة من العبارة « الكلاسيكية » الواردة في هذه الفقرة من « البروتربتيقوس » . وإذا كانت هذه الملاحظة توحي بأن مقالة الألفا قد كتبت قبل كتابنا هذا فان الأستاذ « ديرنج » يرجح أن يكون الاثنان قد دونا في نفس الوقت .

وترد في الفقرة (٧٤) عبارة تتكرر بعد ذلك بقليل : « أن الحياة تحدد (بالقدرة) على الإحساس » ، ويمكن التوسع فيها بالنظر إلى كتاب أجزاء الحيوان (٣-٤ ، ٦٦٦أ ٣٥) . ولعل تعريفه للإحساس في الفقرة التالية (٧٥) بأنه القدرة على معرفة شيء عن طريق الجسم لعله كان تعريفاً شائعاً في الأكاديمية (قارن الفقرة -ب ٢٤ من هذا الكتاب ، وكذلك الجمهورية ٥٣٢ أ) . أما أن الناس جميعا يسعون في طلب المعرفة ويفضلونها على كل شيء آخر (ب٧٧) فهي عبارة أساسية يدور حولها أرسطو في كتابنا هذا ، ولعله قد استوحاها من محاورة أفلاطون « أو يثيديموس » (٢٧٨ جـ — ٢٨٢ حـ) ، لاسيما أن الحجة هنا وهناك متطابقة (كما أثبت الأستاذ ديرلماير في تعليقه على الأخلاق الكبرى ١ — ٣ ، ١١٨٣ أ٣-١٤ص ١٩٢) . (ب٧٩ — ٨٧) في هذه الفقرات عرض مبسط ودقيق لنظرية أرسطو المشهورة عن الامكان والتحقق أو الوجود بالقوة والوجود بالفعل . وقد كان أرسطو أول من استخدم كلمة الفعل « انيرجايا » (١) (التي لانجدها في الكتابات الطبية المجموعة تحت اسم أبقراط .) ويمكن تتبع هذين المفهومين المتقابلين اللذين يعبران عن تصور أساسي في تفكير أرسطو - تتبعا يلمس جذورها في مؤلفات أفلاطون وأرسطو نفسه . ففي محاورة

(١) energeia- ἐνέργεια (الفعل) في مقابل القوة والقدرة δύναμις -dynamis

أفلاطون « أويثيديموس » نجد كلمتين متقابلتين تفيد إحداهما تحصيل المعرفة أو اكتسابها وتملكها [1] ، وتعنى الأخرى استخدامها والانتفاع بها [2] . وفى محاورة ثيآيتيتوس نجد كلمتين متقاربتين تدلان على التملك والاستعمال (١٩٧ ب ، ١٩٩ أ) ويرد التصوران السابقان (الحصول والاستخدام أو الملك والاستعمال) لأول مرة فى الطوبيقا (٥-٢ ، ١٢٩ب ٣٤) ثم نجدها فى كتابنا هذا (البروتريبتيقوس أو الدعوة للفلسفة) فى الفقرات الآتية : ب ٥٣ ، ٧٩ ، ٨١ كما نجد فى الفقرة (٨٣) تنويعا على الكلمة الثانية له أهميته ، إذ تحل كلمة الفعل محل كلمة « الاستخدام » ، كما نجد فى الفقرة نفسها تشبيه الملك والعمل بالنوم واليقظة على الترتيب ، وهى استعارة يتوسع فيها أرسطو فى الأخلاق الأويديمية « (٢-١ ، ١٢١٩ ا - ٩- ٣٨) . أما التقابل الأساسى بين القوة والفعل فنجده لأول مرة فى « الطوبيقا » (٤-٤ ، ١٢٤ ا ٣٢) كما نلتقى به كذلك فى كتابنا هذا فى الفقرة (٧٩) . والواقع أن أرسطو يذكر نظريته الخاصة بالقوة والفعل فى كتاب الطبيعة (١-٨) إذ يقول إن القوة أو الإمكان (الديناميس) هو اللا - وجود الذى يمكن أن ينشأ عنه وجود معين هنا والآن . غير أنه لم يتناولها بالتفصيل إلا فى مقالة « الثيتا » (من كتاب الميتافيزيقا -٦ -٩) التى تعد متأخرة نسبياً فى سياق تطوره الفكرى . ومهما يكن الأمر فإننا نراه يعرض أساس نظريته الهامة فى الفقرة (٨١) مبيناً أن الفعل أشرف وأعلى قيمة من القوة ، وأن الفعل يسمو على الانفعال سمو اليقظة على النوم وهو يعود إلى تأكيد أفضلية الفعل على القوة فى المقالة السابقة من الميتافيزيقا (الثيتا ٩ ، ١٠٥١ أ ٤) حيث يقول إن من الواضح أنه - أى الفعل - أفضل وأشرف من القوة ، كما يزيده تأكيداً فى كتاب النفس (٣-٥ ، ٤٣٠ أ ١٨) حيث نجد هذه العبارة الحاسمة « إن الفعل دائما أشرف من الانفعال » . .

---

(١) Ktesis — Κτῆσις

(٢) chresis — χρῆσις

أما فى الفقرتين (ب٨٣–٨٤) فنجد أرسطو يتحدث عن فعل النفس وحياتها ، وهو شىء ربما يبدو لنا أشبه بتحصيل الحاصل . ولو تذكرنا ما قاله أفلاطون عن « فاعلية النفس » لأكتشفنا وراءه فلسفة عميقة (الجمهورية ٣٥٢ د– ٣٥٤ أ) ولو نظرنا فى بعض كتب أرسطو الأخرى لوجدنا نفس الأفكار تتردد بصورة أو بأخرى (الأخلاق الكبرى ١–٤ ، ١١٨٤ ب ، ٢٢– ٨٥ أ ١ ، والأخلاق الأويديمية ٢–١ ، ١٢١٩ أ ٢٣–٣٥ والأخلاق النيقوماخية ١–٧ ، ١٠٩٨ أ ٧–١٧) . وأهم ما يلفت النظر فى هاتين الفقرتين وفى سائر أجزاء الكتاب أن فاعلية النفس أو أفضل طريقة لاستخدام أعلى قدراتها هو تأمل الموجودات والنظر الخالص فى أصولها ومبادئها ، لأن هذا فى رأى أرسطو (سواء فى هذا الكتاب أو فى سائر كتبه الأخرى وخصوصا الميتافيزيقا والأخلاق) هو أسمى أنواع الفعل (أنظر أيضا الفقرتين ب٦٦ ، ٩١) وهذا يتفق مع فلسفته عن الغاية (التيلوس) أتم اتفاق . أضف إليه أننا نجد التسلسل والتدرج المتصاعد نحو الأعلى والأشرف فى عالم التفكير : فهناك الفطنة عند بعض الحيوانات الذكية (كالنحل والعناكب وعصافير الجنة !) ، وهناك القدرة المتزايدة على التفكير عند الطفل والعبد والمرأة حتى الرجل الحر الناضج الذى يبلغ ذروة التفكير حين يصبح فيلسوفاً يطرح المنفعة الأنانية وراء ظهره ويوجه بصره إلى التأمل والبحث الخالص (وهذا هو الجانب النظرى) فيغدو أسعد الناس وأفضلهم وأكملهم (وهذا هو الجانب العملى). ونجد أفكارا مشابهة عن شتى مستويات التفوق الأخلاقى لدى العبيد والأحرار والرعية والحكام فى كتاب السياسة (١–١٣) . وفى نص فقرتنا هذه (ب٨٤) نجد أرسطو يؤكد سلم الأفعال المتدرجة فى قيمتها . ثم يبلغ ذروة حجته المسهبة فى الفقرة التالية عندما يتكلم عن حياة الحائزين على المعرفة الفلسفية ولا يترك هذه الذروة بعد ذلك أبدا . وليست هذه الذروة العالية غير الحياة الفلسفية التى هى عنده الحياة الحقيقية ومصدر الفرح الحقيقى . ويلاحظ

القارىء أنه يجمع الخيوط التى بسطها فى الفقرة (ب٣٣) وأحكم نسجها فى الفقرات التى نحن بصددها ، ثم شدها فى نسيج بهيج رائع فى الفقرة (ب ٩١) والفقرات الختامية من النص . ولعل شيشرون (فى كتابه عن الغايات [١] ٢،-١٣ ، ٤٠) قد استلهم كتاب الدعوة للفلسفة وهذه الأجزاء من النص بوجه خاص عندما قال : « وهكذا يكون الإنسان – كما قال أرسطو – قد ولد لأمرين هما التعقل والفعل ، وكأنما هو أشبه بإله فان ». (ب٨٧،- ٩٢) تتضمن هذه الفقرات نظرات أرسطية حول اللذة والسعادة يختلف الباحثون فى تفسيرها . وهى تقوم فى هذا الموضع من النص على الإشادة بالفاعلية التى لا يعوقها عائق ولا تتعلق بشيء ولا بهدف تسعى إليه غير الفعل نفسه ، فتكون فاعلية منطوية على الفرح والسعادة أو تكون هى نفسها الفرح والسعادة . والواقع أن الفكرة التى تذهب إلى أن كل ما هو جسمى ، كل مايراه الإنسان ويسمعه، وكل ألم أو لذة إنما يعوق فاعلية الإنسان الحقة التى هى مصدر سعادته–هذه الفكرة ترجع لأفلاطون الذى يعرضها عرضاً مؤثراً فى محاورة « فايدون » بوجه خاص (٦٥ جـ ،- ٦٦ جـ) . وربما كان أرسطو – فى الفقرة (ب٨٨) التى لاتخلو من غموض – يحاول أن يصف الحياة السعيدة التى لا يعوقها عائق خارجى أو قيد عرضى ، وهى فى النهاية حياة التفلسف (أنظر كذلك الأخلاق النيقوماخية ٧،- ١٣، ١١٥٣ أ ١٥) . ويرى بعض الباحثين أن أرسطو فى هذا الكتاب يعادى اللذة . ولكن لو قرأنا نص الفقرات التى نحن بصددها قراءة متأنية ووضعناها كذلك فى سياق الكتاب كله لوجدنا أنه يقف فى صف اللذة التى يمكن أن نصفها ،–إن جاز هذا الوصف بأنها لذة نبيلة . ولابد لتبرير هذا الرأى من الرجوع إلى الفقرة (ب٧٧) التى تبلغ فيها حجة أرسطو فى الدعوة للتفلسف ذروتها ، إذ يصل به الحماس

---

(١) هو كتاب شيشرون (١٠٦ – ٤٣ ق .م) عن الخير الأسمى والشر الأقصى ويناقش فيه مسألة الخير الأسمى وهل هو اللذه أو الفضيلة أم شئ أكثر تركيبا)

إلى حد القول بأن المعرفة الفلسفية أولى باختيار الإنسان من حاسة البصر ، بل أولى من الحياة نفسها ، لأنها هي « سيدة الحقيقة » .. ولابد من تتبع حجته في هذا الكتاب لنرى كيف يرتبط عنده تدرج الموجودات في سلم الرقي بتدرجها في سلم القيم . فهو يعرض هذا التدرج في سلم الموجودات الطبيعية في الفقرات (ب ١١ — ٢١) . ثم نعرف من الفقرات (ب ٢٢ حتى ٣٠) أن النظر الخالص هو أعلى شكل من أشكال التفكير . وبعد أن يثبت أن هذا التفكير هو الشرط الذي لاغنى عنه للفعل الأخلاقي « حتى ولو لم يترتب عليه في الظاهر أية منفعة عملية (من ٥٨ — إلى ٦٩) نجده يؤكد أنه يبعث على الفرح (٥٦ ، ٩١) . ويصل أخيراً إلى هدفه وصول القائد المنتصر فيؤكد (في الفقرة ٧٧) أن الناس جميعاً تسعى إلى المعرفة وتفضلها على أي شيء آخر . وهنا نلاحظ التقارب الشديد بين صيغة هذه العبارة وبين عبارتين أخريين وردت أولاهما في الأخلاق النيقوماخية (٧—١٤ ، ١١٥٣ ب ٣٠) وهي « أن الجميع يطلبون اللذة » وذكرت ثانيتهما — كما أسلفنا — في مدخل مقالة « الألفا » من كتاب الميتافيزيقا : « أن البشر جميعا يسعون بطبيعتهم إلى المعرفة ». فهل نستنتج من هذا كله أن لأرسطو رأيا واحدا في اللذة أو السعادة وأنها مساوية عنده للنظر والتأمل الخالص ، أم أنه غيَّر وجهة نظره بتغير مراحل تطوره الفكري ؟ يبدو أننا لن نستطيع القطع برأي واحد في هذه المسألة ، وربما كان أرسطو نفسه هو المسئول عن هذا . فهو يناقش مشكلة اللذة كما يناقش مشكلة السعادة من زوايا متعددة ، ويقدم — على عادته في استعراض الآراء المختلفة في كل مسألة يبحثها — أجوبة وتفسيرات شتى أتعبت علماء العصور القديمة والحديثة ! وقد ذهب « ييجر » إلى أن أرسطو غيَّر رأيه في اللذة بعد موت أفلاطون (١) ، وذلك استناداً إلى اعتقاده بأنه (أي

---

(١) يمكن الرجوع إلى نصوص أرسطو الثلاثة الأساسية (بجانب كتابنا هذا) عن اللذة في الأخلاق الكبرى (٢ ، ٧) والأخلاق النيقوماخية (٧ ، ١٣— ١٥ ، ١٠ ، ١ — ٥) والخطابة (١ ، ١١) ومقالة اللام من الميتافيزيقا (٧) وملاحظات أخرى في كتاب الطبيعة (٣٧ ، ٢٤٧ أ ، ١٤ — ١٨) وكتاب النفس (٣ ، ٧ ، ٤٣١ أ ١٠ — ١١)

أرسطو) لم يستقل بفلسفته إلا بعد موت أستاذه . بيد أن آراء « ييجر » قد تعرضت للنقد والتعديل من جانب علماء عديدين ، ويتفق معظمهم الآن على أن رأى أرسطو فى اللذة بقى على ما هو عليه . فالنصوص التى بين أيدينا تدل على أنه كان متفقا مع رأى معاصره « أويدوكسوس » (١) فى أن اللذة خير إيجابى وأنه حاول خلال مراحل تطوره التى لا تنكر أن يؤيد قول معاصره هذا بأنها خير طبيعى أو حيوى وأن يلائم بينه وبين نزعته المثالية التى تميل إلى وجود تسلسل أو تدرج فى اللذات . ولا ننسى أن كتابنا هذا ليس عرضا منهجياً لطبيعة اللذة ، كما أنه يخرج بطبيعته عن التصدى للمشكلات وفحص المعضلات . إنه كما سميناه دعوة للتفلسف وهى دعوة ملحة ، والدعوات بطبيعتها تنفر من التعقيد وتغرى الضيوف والمدعوين بكل سبيل .. ولهذا غلب عليه – كما رأينا – الأسلوب البلاغى والخطابى . وربما صح رأى بعض الباحثين فى أن المعلم الأول لم يكلف نفسه عناء كتابته ، بل أملاه على بعض تلاميذه ارتجالا .. ويمكن على كل حال أن نلخص رأيه فى اللذة كما عرضه فى الفقرات المشار إليها (من ٨٧ إلى ٩٢) على النحو التالى : هناك أشياء مرذولة توصف بأنها لذات ولكن هناك أيضا لذات طيبة وحقيقية ، ولهذا تنطوى أكمل أشكال الحياة على اللذة الكاملة . فالمستيقظ يحيا حياة تفوق فى قيمتها حياة النائم ، والمفكر يحيا حياة أكمل من حياة العاطل من التفكير (بسبب تخلفه أو عدم نضجه) ، والفرح والسعادة اللذان ينبعان من الفكر الفلسفى هما أصدق

---

(١) هو أويديكسوس الكنيدى (من حوالى ٤٠٠ إلى حوالى ٣٤٧ ق.م) عالم يونانى تفوق فى الرياضيات والفلك والجغرافيا . كان من أعضاء الأكاديمية الأفلاطونية ، وربما ترأسها فى غياب أفلاطون عنها (سنه ٣٦٧ فى رحلته إلى صقلية) وفى نفس الوقت الذى التحق فيه أرسطو بها . قدم أثناء وجوده فى الأكاديمية تفسيرا لنظرية المثل من وجهة نظر العلم الطبيعى وكان رأية فى أن اللذه هى الخير الأسمى أثر كبير على أرسطو الذى يناقش نظريته فى المقالة العاشرة من كتاب الأخلاق النيقوماخية ، ويحتمل أن يكون قد أثر عليه أيضا فى نظريته عن المحرك الأول الذى لا يتحرك ..

فرح وأكمل سعادة . ويكفى أن نتأمل العبارة الأخيرة فى الفقرة (٩١) لنرى كيف يتحد كمال الصياغة الفنية واللغوية مع كمال الفرح والسعادة بالحياة !.. (ب ٩٧ - ١٠٣) تعبر الحجة التى يسوقها أرسطو فى هذه الفقرات عن طابع تفكيره. فقد بدأ بتبرير حجته تبريرا نظريا واتخذ منها برهانا يثبت به ما يقول. وهذه الحجة هى اجماع الناس فى كل الشعوب والعصور [1] على وجود الله وعلى طلب السعادة . وهى حجة كانت لها شهرتها فى العصور القديمة وعصر آباء الكنيسة ، وما زالت معياراً للحقيقة فى ميدان فلسفة الدين ، ولعلها تكمن وراء الدليل « الأنطولوجى » المشهور منذ القديس « أنسيلم » حتى ديكارت وناقديه . والمهم أن حجة أرسطو تتضمن العناصر الآتية :

(ا) الحياة المفتقرة للقدرة على التفكير حياة لاقيمة لها .

(ب) القدرة على التفكير والتفلسف لايقاس بها شيء آخر ، وكل ما عداها لايساوى شيئا إذا قورن بها .

(ج) النوم شيء ممتع ومحبب إلى النفس ، ولكن من المستحيل تفضيله على اليقظة أى على الفكر الايجابى الفعال .

(د) أننا نحب كل ماهو واضح ومضيء ، ولهذا نحب التفكير والمعرفة .

(ه) وأخيرا فإن القدرة على التفكير والتفلسف شرط ضرورى لقيام الحياة السعيدة الكاملة . - ونرى فى الفقرة (٩٨) كيف يلجأ أرسطو كما كان يفعل أستاذه - إلى الحجة التى تقوم على المقابلة بين الأضداد [2] - وقد كان كلاهما يستعين كثيرا بهذا الأسلوب من الحجاج - فيزيد بذلك من الأحكام والدقة اللذين يميزان هذا الكتاب ، ويبلغ بعقلانيته أقصى حد

---

(١) Argumentum e cosensu omnium

(٢) ἐξ ἐναντίων – ex enantion مواجهة رأى برأى آخر مضاد له ومتعارض معه .. والملاحظ أن أرسطو يستخدم هنا رصيده القديم من أمثال هذه الحجج التى عرضها فى " الطوبيقيا " أو المواضع الجدلية).

ممكن . أما أن معظم حججه - كما أشرنا مراراً - حجج بلاغية وخطابية وبراهين ظاهرية ترد فى أغلب الأحوال إلى تحصيل الحاصل ، فذلك أمر آخر ... - ترد فى الفقرة (١٠١) عبارات تدل على رأى أرسطو القاطع فى تكذيب الأحلام واعتبار الرؤى والتخيلات التى تطوف بنا فى النوم نوعاً من الخداع الذى لانصيب له من الحقيقة . وإذا كان أفلاطون فى مناقشته المشهورة لموضوع الأحلام (الجمهورية ٥٧١- ٥٧٢) قد ذهب إلى أن « الرجل الحكيم » يمكن أن يقترب من الحقيقة فى أحلامه بحيث لاتبتعد رؤاه وتخيلاته عن الواقع المألوف أدنى بعد ، فان أرسطو ينفى فى كتابنا هذا وفى مواضع أخرى من كتبه أن يكون للأحلام أى نصيب من الحقيقة والصدق ، وإن كانت تعبر عن نوع من الإدراك أو الإحساس الذى ليس من السهل احتقاره ولا الاقتناع به (كما يقول فى مقالته عن النوم ٤٦٢ ب ١٢ أنظر كذلك الميتافيزيقا ، مقالة الدلتا ٢٩ ، وكذلك الفقرة التى نحن بصددها من هذا الكتاب) - أما كلامه فى الفقرة التالية عن الهروب من الغامض والمجهول والسعى إلى الواضح والمعروف فلعله أن يكون متأثرا برأى أفلاطون فى أن مثال الخير - وهو أسمى المثل وأرفعها قدراً - يفيض النور والوجود والمعرفة على الأشياء الموجودة فى عالم الحس (الجمهورية ٥٠٩ أ). وإذا كان الفكر الفلسفى اليونانى يوحد بوجه عام بين النظر العقلى والنظر بالعين ، بحيث يمكن القول أن التأمل عنده مقترن بالمشاهدة والرؤية الجمالية (خصوصا عند أفلاطون !) فليس غريبا أن تتردد عند أرسطو وعند غيره من مفكرى اليونان صور العقل والنور والبصر (أنظر مثلا الخطابة ٣-١٠ ، ١٤١١ ب ١٢ ، والطوبيقا ١-١٧ ، ١٠٨ أ ١١ ، والأخلاق النيقوماخية ١-٤ ، ١٠٩٦ ب ٢٩) (ب ١٠٤ - ١١٠) يبدو من روح هذه الفقرات الأخيرة والتشاؤم الغالب عليها (والمتأصل فى الروح الإغريقية جنباً إلى جنب مع التفاؤل العقلى ، وهذا هو وجه المفارقة النادرة فيها !) أنها مستوحاة بوجه خاص من محاورة فايدون لأفلاطون (٦٤ أ - ٧٠ ب) التى تعرض نفس الفكرة

تقريبا على النحو التالى : « إن التفلسف معناه تحرير النفس من الجسم [١] صحيح أن الرجل العادى يرى أن الحياة بغير لذة الحواس لاقيمة لها (٦٥أ) ولكن هذه اللذة عديمة القيمة ، فالعقل [٢] يفكر أوضح تفكير عندما يسعى فى طلب الموجود . إن الفيلسوف يتوصل للحكمة [٣] والحقيقة عندما يبحث بالفكر الخالص عن الطبيعة الحقة للأشياء . ولكنه لايستطيع بلوغ المعرفة الصادقة بالموجود الحقيقى طالما بقيت نفسه مطروحة مع جسده السيئ [٤] . لهذا ينبغى علينا أن نسعى إلى تحرير النفس من الجسد (٦٧جـ) حتى تتمكن من التركيز على الفاعلية الباطنة ، (وتكون) حرة من أغلال الجسد . إنك إذا تأملت عامة الناس وجدت كل سعيهم باطلا ، (ولاحظت أنه فى معظم الأحوال نوع من المهادنة لاجتناب شر معين . لأنهم يعيشون فى قلق دائم ولايفهمون أن الحكمة وحدها هى العملة الأصيلة التى يمكننا أن نشترى بها فضيلة النفس . وليست الحياة الخالية من الحكمة إلا لعباً أو رسما بالظلال (٦٩ب) ، وهى فى الواقع حياة الاستعباد » —

والتقارب بين هذا النص وبين عبارات الفقرات التى نحن بصددها أوضح من أن نشير إليه. صحيح أنه تقارب فى الشكل أكثر منه فى المضمون ولكنه ينطق فى الحالين بأن الحياة العاطلة من التبصر والحكمة حياة باطلة لاتستحق أن تسمى حياة ، وأن القيم التى يحتفل بها الناس لاتبدو لهم كذلك إلا بسبب ضعفهم الذى يزينها فى أعينهم ، مع أنها لاتعدو أن تكون ظلالا سخيفة وأشباحاً عارية من كل حقيقة . غير أن التقارب الشكلى بين الفيلسوفين لاينفى عن أرسطو أصالته ، فليس ما يقوله مجرد محاكاة لأستاذه ، وصوره ليست مجرد ظلال باهتة لذلك الأثر المشهور . ويتضح

---

(١) أو طالما بقيت ملقاة مع الجسد أو مقذوفا بها فيه .

(٢) أو بما هو جسمى .

(٣) أو الروح .

(٤) أو التبصر العاقل الحكيم (فرونيزيس)

هذا بوجه خاص إذا تأملنا الاستنتاج الذى يخرج به أرسطو من كلامه المصبوغ بالقتامة. فهو فى الحقيقة يبتعد عن كلام أفلاطون بقدر ما يقترب من « دفاع » سقراط. أنه ينكر إمكان التوصل إلى المعرفة الحقيقية فى هذا العالم، ولا يرجح هذا الإمكان فى عالم آخر بعد الموت، وإنما يؤكد أن الحياة بغير تفلسف لا تستحق أن تكون حياة. وإليك عبارات أفلاطون التى توضح الفارق الشديد بينه وبين تلميذه الناضج المستقل برأيه: « إذا كان من المستحيل إذاً التوصل إلى المعرفة الحقيقية مابقيت النفس مرتبطة بالجسد، فليس (أمام الإنسان) إلا أحد أمرين ممكنين: إما أن يكون اكتساب المعرفة الحقيقية مستحيلا على الإنسان، وإما أن يكون محتملا بعد الحياة الحاضرة » (فايدون، ٦٦د). لاشك أن الفقرات الأخيرة توحى للوهلة الأولى بتشاؤم أرسطو، مما جعل « ييجر » (أرسطو، أسس تاريخ تطوره، برلين ١٩٢٣، ١٩٥٥ ص ١٠٠) يقول إنه كان فى كتابيه (ويقصد بهما الأخلاق الأويديمية وهذا الكتاب) مفعم النفس بالتشاؤم من هذا العالم الأرضى ومن خيرات الدنيا. وتابعه فى ذلك بعض الباحثين الايطاليين (مثل باريجاتسى وبنيونه وتلاميذه) الذين أسرفوا فى تأكيد تشاؤم أرسطو فى شبابه ورجولته إلى حد القول بأنه دعا فى كتابيه السابقين إلى ترك الأرض التى لا يتاح فيها للإنسان أن يحيا الحياة الحقة! والواقع أن هذا الزعم مبالغ فيه أو مغلوط من أساسه. فأرسطو لم يتخل أبدا عن نزعته العقلية المتفائلة، ولا تخلى أبدا عن واقعيته التى تنفذ ببصرها الحاد إلى كل مجالات الواقع فى الطبيعة والعقل والحضارة. وإذا كان عقله الأرستقراطى يطل كالنسر من عليائه ويرصد جوانب الضعف والشقاء الإنسانى، فما ذلك إلا لأن عين الفيلسوف تنظر إلى الواقع – كما يعبر اسبينوزا – من وجهة نظر أبدية فترى كل ما نتصوره خيراً مجرد مظهر خداع وشبح زائل، وتعرف أن القيم التى نهتم بها فى حياتنا اليومية عديمة القيمة. وإذا كان الرجل العادى مثلنا يمر بهذه التجربة فى بعض المواقف

« الحدية » والأزمات الطارئة ، فهل نستكثر على الفيلسوف أن تكون هذه هى تجربته الأصلية؟ وهل يمنع التعاطف مع الشقاءالبشرى من التفاؤل بقدرة العقل على الوصول إلى الحقيقة والإيمان وبقدرة الإنسان على أن يحيا الحياة الجديرة به ؟ لقد كان أرسطو فى صميمه إنسانا واقعيا . وهذه الواقعية « اليونانية » هى التى جعلته يرصد ضعف الإنسان ويعرف أن شقاء البشر أمر واضح للعيان (السياسة ٢-٧، ١٢٠٧ ب ١) . وقد كان ضعف الإنسان بالقياس إلى الآلهة موضوعا أثيراً طرقه مفكرو اليونان وكتابهم وشعراؤهم منذ هوميروس حتى عهده . ولهذا اقترن به كذلك موضوع آخر ظلوا يعبرون عنه منذ عهد الحكماء السبعة فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ، وهو ضرورة التزام الحد وتجنب الغطرسة والسعى إلى معرفة النفس ، أى معرفة الإنسان بأنه حيوان عاقل فان . . أما أن العقل هو وحده الخالد وأنه هو وحده الإلهى من كل ما ينطوى عليه كياننا ، فهى فكرة لم ترد عند أرسطو وحده ، وإنما هى قديمة فى الفكر اليونانى ، نجدها فى شذرات باقية من ديوجينيس الأبوللونى (من القرن الخامس قبل الميلاد) (٦٤ أ ١٩) وعند ثيوفراسط[1] (من حوالى ٣٧١ — ٣٧٠ إلى ٢٨٨ — ٢٨٧ ق. م) الذى يقول فى كتابه عن الاحساس (٤٢) إن العقل (نوس) هو جزء صغير من الله ، كما قال بها أفلاطون فى شىء من الحذر (فى القوانين ٨٧٥ جـ) ووردت عند أرسطو نفسه (فى كتابه أجزاء الحيوان ٤— ١٠ ، ٦٨٦ أ ٢٨ — ٢٩) حيث يقول إن العقل أو التبصر هو أكثر الأعمال حظاً من الألوهية . ومن الطبيعى أن يستخلص أرسطو النتيجة المترتبة على هذا القول فيذهب فى الفقرة قبل الأخيرة (١٠٩) إلى أن الإنسان يبدو بفضل العقل إلها بالقياس إلى سائر الكائنات الحية . وقد ردد شيشرون هذا القول الأخير كما رأينا من قبل

(١) أوثاوفراسطوس ، صديق أرسطو وتلميذه وخليفته فى رئاسة مدرسته (اللوقيون) من سنة ٣٢٢ إلى سنة ٢٨٧ ق. م.

(فى رسالته عن الغايات ٢، ١٣، ٤٠) فوصف الإنسان بأنه أشبه بإله فان، وصاغه أبيقور (٣٤١ – ٣٧٠ ق . م) بصورة أخرى حين قال إن الإله يحيا فى الإنسان (وذلك فى خطابه إلى مينوكيوس . Ep. ad Men. ١٢٥ وهو فى الأخلاق واللاهوت ويعارض فى بعض أجزائه كتاب أرسطو هذا ..) . وفى النهاية ترتفع هذه النغمة الرائعة لتتوج اللحن الختامى فى الفقرة الأخيرة ، فنسمع أن حياة الإنسان الفانية تنطوى على جزء من الإله، وهو قول تتردد فيه عبارة اقتبسها أرسطو كما اقتبسها غيره من مسرحية « ميديا » للشاعر المسرحى يوريبيدز (ميديا ، البيت رقم ٧٧٠) .

وتأتى العبارة الأخيرة فى الكتاب لتعزز إيمان أرسطو بما قاله سقراط فى خطبة الدفاع (٣٨أ) ، وتؤكد أنه (أى أرسطو) أقرب إلى هذا الحكيم – الذى يجروْ على السؤال [١] – من أفلاطون نفسه ... « إن الحياة الخالية من التأمل والنظر لحياة لاتليق بالإنسان » .. وربما أمكننا أن نضيف : والحياة الخالية من الحرية لاتسمح بتأمل ولا نظر ولا عمل، بل ليست فى الحقيقة حياة . . . .

« تم بحمد الله وتوفيقه »

---

(١) عنوان رواية فلسفية رائعة للكاتبة الأمريكية «كورا ماسون» نقلها إلى العربية الأستاذ محمود محمود . القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٦ .

كتب أخرى للمترجم

- البير كامى ، محاولة لدراسة فكره الفلسفى ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤ ٠
- مدرسة الحكمة ـ القاهرة ، دار الكتاب العربى ـ ١٩٦٧ ٠
- نداء الحقيقة ـ القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٧٧ ٠
- المونادولوجيا والمبادىء العقلية للطبيعة والفضل الالهى (لليبنتز) ـ القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٧٤ ٠
- المنقذ ـ قراءة لقلب أفلاطون (مع نص الرسالة السابعة) ـ القاهرة دار المعارف (تحت الطبع) ٠
- فلسفة العلو (الترانسندنس) ـ للأستاذ فولفجانج شتروقه ـ القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٧٥ ٠
- تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق (لكانط) ـ القاهرة ، المكتبة العربية ، ١٩٦٥ ٠
- الطريق والفضيلة (تاو ـ تى ـ كنج) للحكيم الصينى لاو ـ تسى القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٦ (الألف كتاب) ٠
- البلد البعيد ـ دار الكاتب العربى ـ القاهرة ، ١٩٦٧ ٠
- ثورة الشعر الحديث (من بودلير الى العصر الحاضر) فى جزئين القاهرة ، هيئة الكتاب ، ١٩٧٢ ـ ١٩٧٤ ٠
- سافو ـ شاعرة الحب والجمال عند اليونان ـ القاهرة ، دار المعارف، ١٩٦٦ ٠
- التعبيرية ـ (صرخة احتجاج فى الشعر والقصة والمسرح) ـ القاهرة، هيئة الكتاب ١٩٧١ (سلسلة المكتبة الثقافية) ٠
- هلدرلين ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٢ (سلسلة نوابغ الفكر الغربى) ٠

- النور والفراشة – زهرات من بستان الديوان الشرقى لجوته مع رؤيته للأدب العربى وأدب الفرس ، القاهرة ، دار المعارف ، سلسلة اقرأ ، مارس ١٩٧٩ .
- ابن السلطان (قصص) – القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٧ (سلسلة اقرأ) .
- الست الطاهرة (قصص) – القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٧ .
- الحصان الأخضر يموت على شوارع الأسفلت – قصص القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨١ .
- لحن الحرية والصمت (الشعر الألمانى بعد الحرب العالمية الثانية) القاهرة ، هيئة الكتاب ، ١٩٧٤ – سلسلة المكتبة الثقافية .
- المسرح التعبيرى – القاهرة ، هيئة الكتاب ؛ ١٩٨٤ .
- المسرح الملحمى – القاهرة – دار المعارف – ١٩٧٧ (سلسلة كتابك)
- المسرحيات الكاملة لجورج بشنر – القاهرة ، هيئة الكتاب – ١٩٧٩ (سلسلة مسرحيات مختارة) .
- قصائد من برخت – القاهرة – دار الكاتب العربى ، ١٩٦٧ .
- الأقصوصة والحكاية (لجوته) – القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٦ (سلسلة اقرأ) .
- تاسو (لجوته) – القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٩٦٨ (سلسلة مسرحيات عالمية) .
- الاستثناء والقاعدة والسيد بونتيلا وتابعه ماتى (لبرخت) – دار الكاتب العربى ، مسرحيات عالمية ، ١٩٦٦ .
- بكائية الى صلاح عبد الصبور – القاهرة – هيئة الكتاب ، ١٩٨٢ .
- الليل والجبل (ثلاث مسرحيات) – القاهرة ، روايات الهلال ، أغسطس ١٩٨٥ .
- من قتل الطفل ؟ (مسرحيتان) – القاهرة ، هيئة الكتاب ، مختارات فصول ، ١٩٨٣ .

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٧٧٢ / ١٩٨٧

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٣٦٩ ـ ٧

كتاب مفقود لأرسطو ، بدأت عيـون الباحثين تقتفى آثاره . . وتتلمس صداه فى نصوص أرسطو الباقية من كتبه الضائعة أو فى نصوص القدماء الذين أخذوا عنوان كتابه وحاولوا تقليد أسلوبه وأفكاره ، وظل الأمر فى أخذ ورد حتى بدد أحد العلماء الانجليز الظلام المحيط به وأثبت أن كتابا بنفس العنوان لأحد أتباع الأفلاطونية ـ يضم جزءا كبيراً أخذ بنصه الحرفى من كتاب أرسطو .

ويقدم هذا الكتاب للعربية د . عبد الغفار مكاوى ، ويتناول الجوانب التاريخية العامة مع عرض وتحليل له ونشأته ومضمونه .

١٢٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب